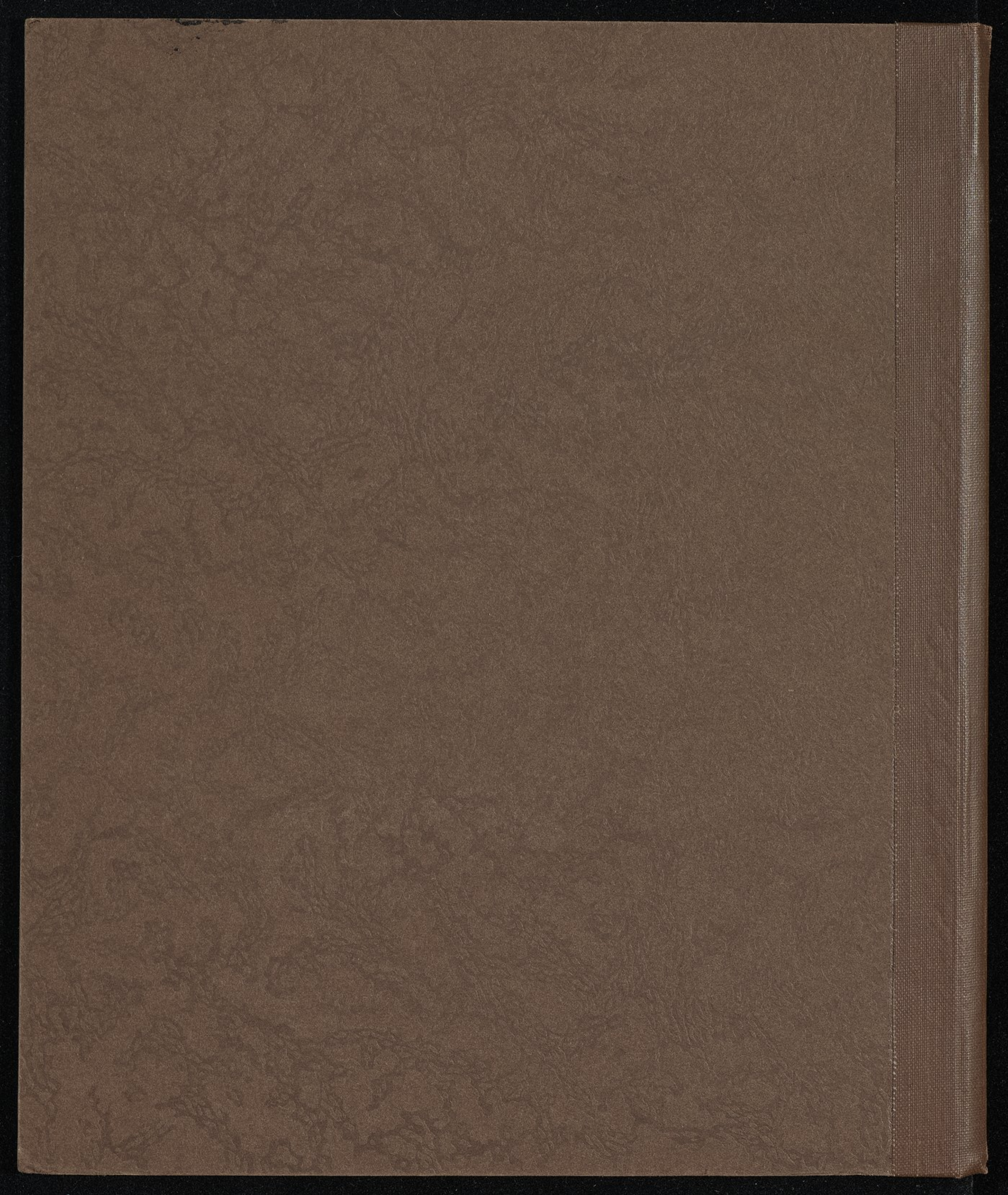
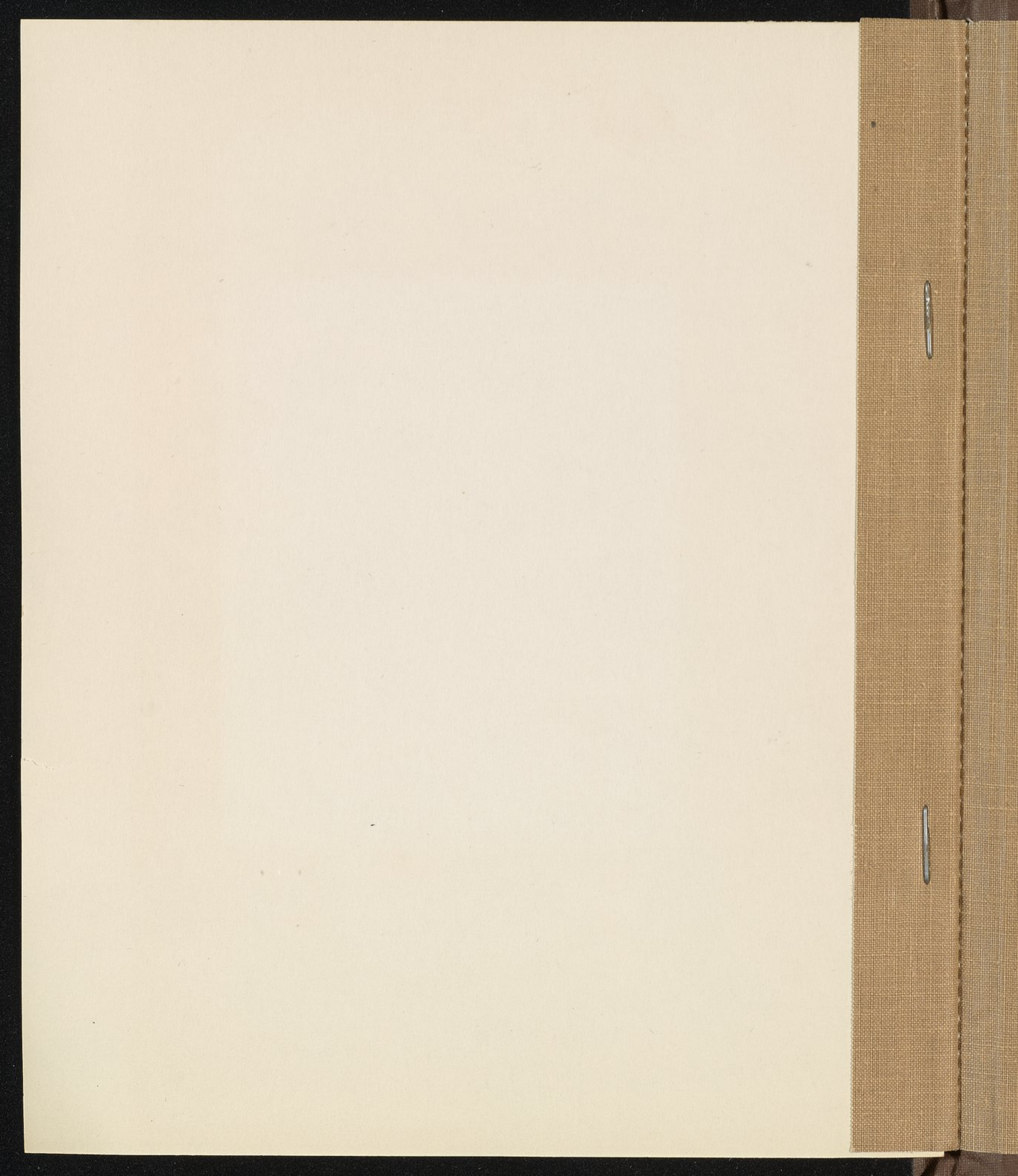
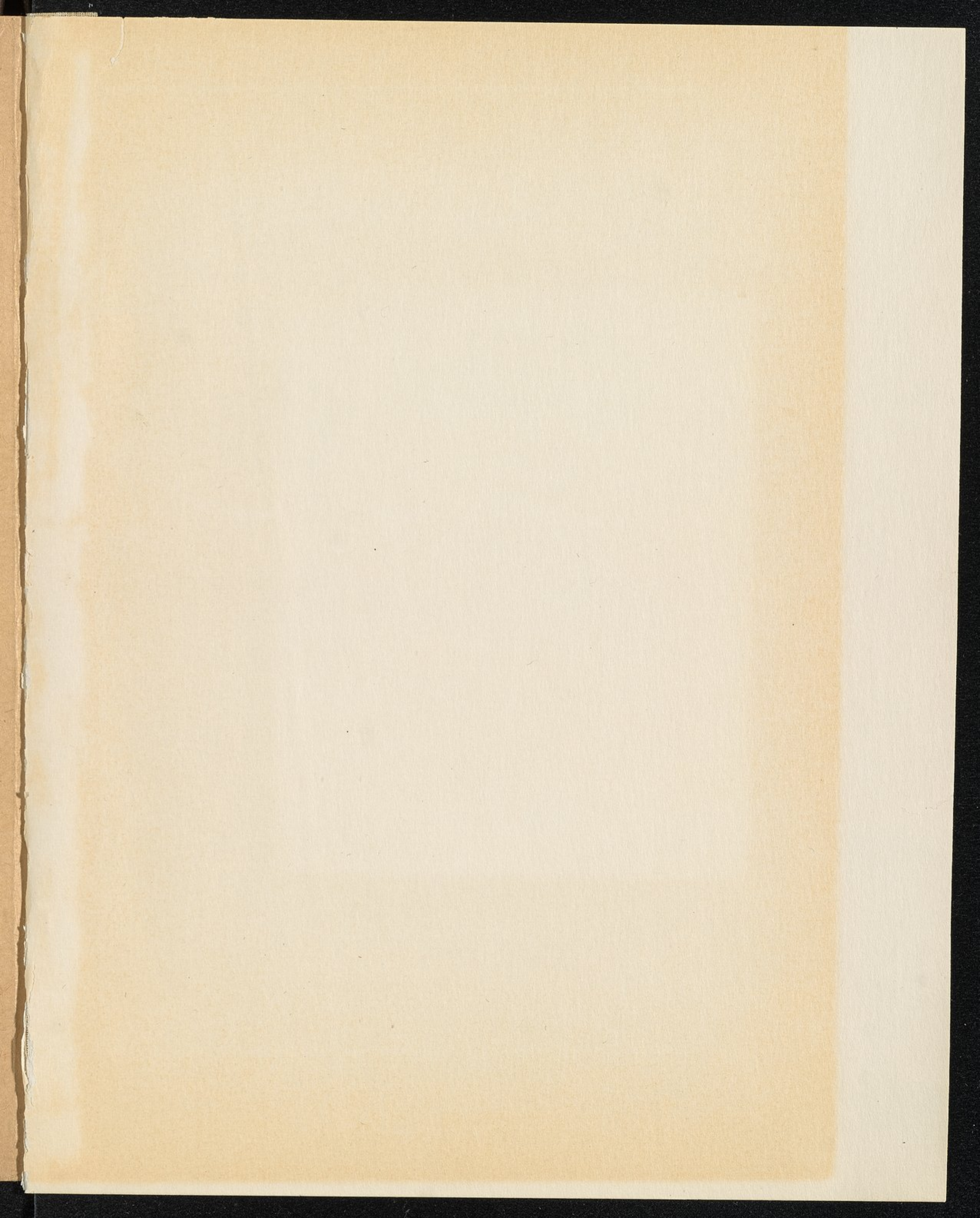



SIGILLVM · COLLEGII · COLVMBIAE · NOVI · EBORACI
IN LVMINE TVO VIDEBIMVS LVMEN





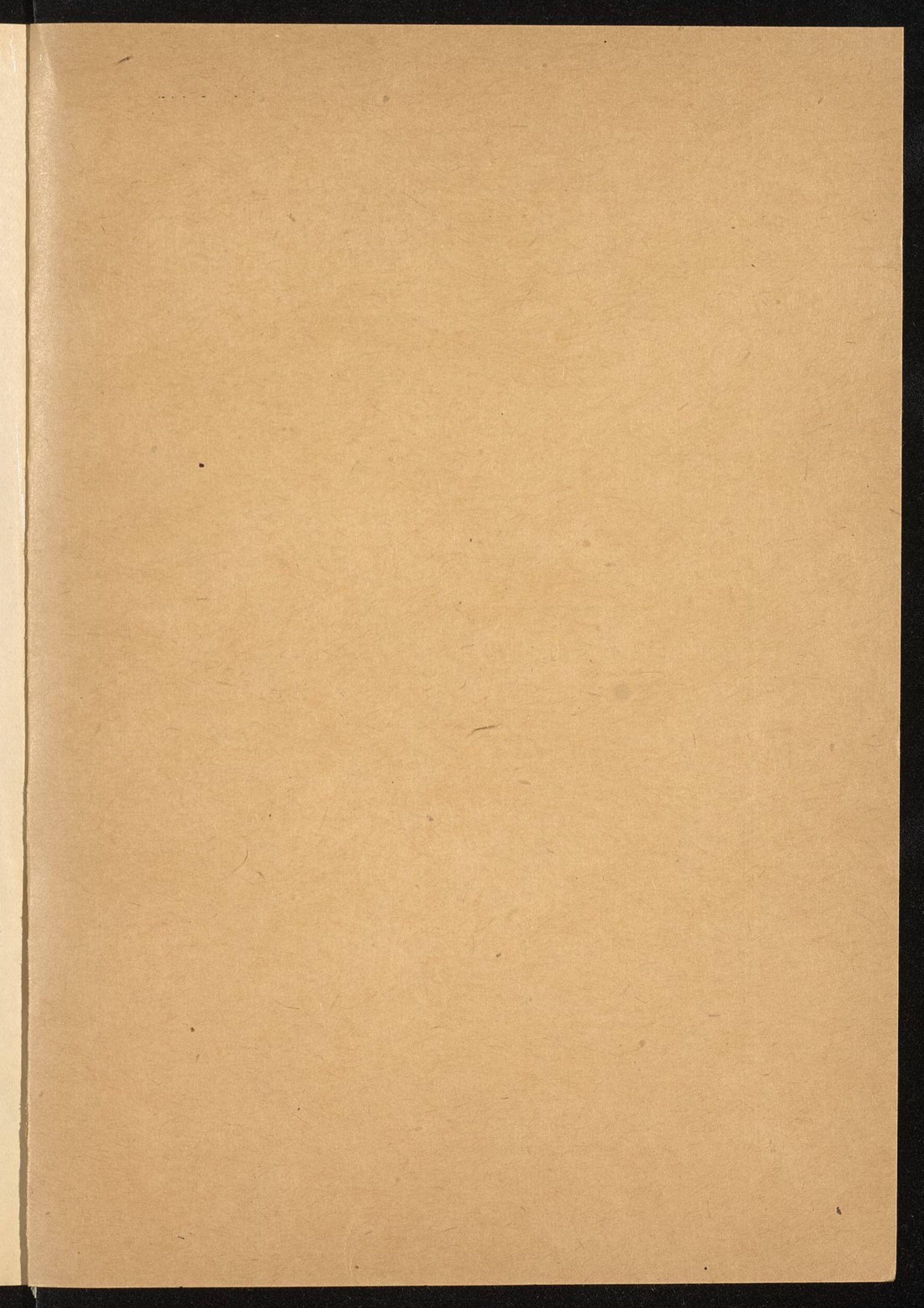
ذخائر الفكر الاسلامي

٥

نظرية الاسلام الخلقية

أبو الأعلى المودودي
امير الجماعة الاسلامية بباكستان

الناشر
مكتبة الشباب المسلم
دمشق - ص . ب ٥٥٦



ذخائر الفكر الاسلامي

٥

نظرية الاسلام الخلقية

ألفها بالاردية

ابو الأعلى المودودي

أمير الجماعة الاسلامية بباكستان

نقلها الى العربية

محمد كاظم سباق

من زملاء دار العروبة

الناشر

مكتبة الشباب المسلم

دمشق - ص . ب ٥٥٦

ذخائر الفكر الاسلامي – ٥

بسم الله الرحمن الرحيم

بيان من دار العروبة للناشرين

وقع الينا ان بعض الناشرين في البلاد العربية يرغبون في تجديد طبع ما سبق نشره من كتبنا ورسائلنا ، بل إن نفراً منهم اقدموا على ذلك فعلاً دون علم دار العروبة . والرجاء ممن يرغبون في ذلك الا يقدموا على الطبع مالم يؤذنوا دار العروبة ، وينالوا موافقتها على شرائط معينة . وذلك بالاتصال بمكتبة الشباب المسلم (دمشق ـ ص . ب ٥٥٦) . وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين .

دار العروبة

المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسوله الكريم .

وبعد فهذه حلقة جديدة من سلسلة « **منشورات دار العروبة للدعوة الاسلامية** » تتناول موضوعاً من أخطر الموضوعات شأناً ، وأبعدها ، في حياة المسلمين الفردية والجماعية ، أثراً ، وأجدرها بالعناية وطول التأمل ، لنقف على هدي الاسلام فيها ، ألا وهو « **نظرية الاسلام الخلقية** » .

وأصل هذه الرسالة محاضرة ألقاها الأستاذ السيد ابو الأعلى المودودي ، أمير الجماعة الاسلامية بباكستان ، في حفل حافل ، انعقد في (الكلية الاسلامية) بمدينة بشاور في الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٣ هـ ٢٦ شباط (فبراير) سنة ١٩٤٤ م ، ثم نشرها في مجلته

الشهرية (**ترجمان القرآن**) .

☆ ☆ ☆

هذا ، والمكتبة الاسلامية تكاد تكون خالية من كتب تبحث في فلسفة الأخلاق في الاسلام ؛ فان علماء الشريعة لم يولوا هذه المسألة ما يليق بها من اهتمام ، وهم لا يكادون يتجاوزون ، في بحوثهم ، ما سن الاسلام من أحكام أخلاقية ، وقد تناولوا ـ أكثر ما تناولوا ـ مسائل الترغيب والترهيب ، ولم يتعرضوا ـ في قليل ولا كثير ـ للمسائل الأساسية في فلسفة الأخلاق ، إذ كان ذلك خارجاً عن طبيعة عملهم ، ألا وهو استنباط الأحكام الشرعية من مصادرها الأولى .

وأما فلاسفة المسلمين فقد تأثروا ـ أشد ما تأثروا ـ بفلسفة أرسطو ، وغاية ما جاؤوا به أن أخذوا طائفة من المصطلحات اليونانية والسريانية ، واستبدلوها بأمثالها من المصطلحات العربية والاسلامية ، واتخذوا من القرآن والسنة وأحكامها وسيلة لتأييد ما انتحلوا من آراء ، والبرهنة على صدق فلسفة أرسطو والدفاع عنها .

وأما المتصوفة ، فان فريقاً منهم ممن تناولوا هذا الموضوع قد انطبع تفكيرهم الأخلاقي بطابع الفلسفة

الاشراقيـة ، وجاؤوا في بحوثهم ، بكثير من عناصر الفلسفات اليهودية والنصرانية والمانوية والزرادشتية والبرهمية.

ولا شك أن الامام ولي الله الدهلوي ـ رحمه الله ـ قد تكلم ، إلى حد ما ، في فلسفة الأخلاق في الاسلام في كتابه الشهير (**حجة الله البالغة**) ، إلا أن بحثه لا يكاد يفي بالحاجة نظراً لأهمية الموضوع وخطورته .

* * *

وقد تناول الاستاذ المودودي ، في هذه الرسالة ، جميع المسائل الأساسية في الأخلاق ، واجتهد أن يجلو رأي الاسلام فيها وفق ما جاء في الكتاب والسنة .

وهذه الميزة الأولى لهذه الرسالة .

والميزة الثانية ، أن هذه الرسالة تكشف النقاب عن وجه فلسفة الغرب الأخلاقية ، وتبين ما فيها من مواطن الضعف والغميزة ، وتثبت ، بالأدلة القاطعة ، زيف هذه الفلسفة ، وأن الأخلاق الانسانية لا يمكن أن تستقيم على سنن صالح وهدي بيِّن ، إلا إذا نهض بنيانها على أساس نظرية الاسلام في الكون والانسان ، وفق ما جاء في الكتاب والسنة ، وأن ما عداه من الأسس ، إذا قامت

عليه فلسفة أخلاقية ، فلا بد أن يكون فيها من الخلل ما لا يمكن سده أبداً .

* * *

والحق أن هذا الموضوع - موضوع الأخلاق - لا يفيه حقه من البحث والتمحيص إلا كتاب ضخم ، إلا أن المؤلف - حفظه الله ونفع به - ألم بأمهات مسائله وأصولها بايجاز ، وهذه الرسالة - على صغرها - تشتمل على أسس وتوجيهات إذا تابعها من يسعفه وقته وجهده ، وأولاها العناية السخية ، خرج ببحث شامل في الموضوع : أصوله وفروعه .

* * *

وقد ظهر من هذه الرسالة - حتى الآن - خمس طبعات باللغة الأردية ، ونقلت الى الانكليزية ، والترجمة العربية ، التي نتقدم بها اليوم إلى إخواننا أبناء البلاد العربية ، قام بها الأخ الفاضل الأستاذ السيد **محمد كاظم سباق** من زملاء دار العروبة للدعوة الاسلامية . وقد سبق لهذه الدار أن نشرت مثيلات لها طبعت في دمشق والقاهرة بمعونة إخوان لنا في الدين والعلم ، يجد القارىء أسماءها في ختام هذه الرسالة .

ومن الله نستمد العون على المضي في نشر هـــذه الرسائل ، ونسأله ـ سبحانه ـ أن يرزقنا النية الخالصة ، والعمل الصالح .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

لاهور { ١٧ شوال المكرم ١٣٧٤ هـ
٩ حزيران ١٩٥٤ م }

وكتب

محمد عاصم الحداد

معتمد دار العروبة للدعوة الاسلامية

نظرية الإسلام الخلقية

ما دام ماء الحياة الانسانية يجري في هدوء وسكون وما دامت الأحوال ساكنة مطمئنة ، فإن سطحه الصافي النقي يقوم حجاباً مستوراً بينك وبين ما استقر في أسفله من القذر والكدر ، وتشعر تلقاء منظره بشيء من السلو والطمأنينة . ولما تشاهد أمامك من صفاء سطحه ونظافته الظاهرة ، فقلما تحس من نفسك حاجة إلى أن تتجسس وتبحث عما رسب في قاعه من طين آسن ووحل ووسخ ، وأن تفحص عن مأتاها ومنشئها . حتى إذا هاج البحر واضطربت أمواجه وتقلب ظهراً لبطن ، وتكشف ما في أعماقه من القذر وطفا على سطح الماء بمرآة من العيون ، رأى — رأي العين — كل من كان في عينيه بصيص من النور أن ماء الحياة الانسانية يجري حاملاً في

حبُكه كل قذر و كدر . تلك هي الآونة التي قد يهتم
فيها للأمر عامة الناس ويشعرون بحاجة من أنفسهم الى
أن يبحثوا عن مصدر تلك الأقذار والأنجاس ومنشئها
الذي تنساب منه إلى عباب البحر ، وأن يفكروا في
وجه الحيلة والتدبير لتطهير البحر من دنسه ووسخه .
ولعمر الحق انه إذا لم تنتبه الانسانية حتى في تلك الآونة،
ولم تبادر إلى تدارك الأمر ، فإن ذلك لدليل على أنها
قد أصبحت سكْرى بنشوة الغفلة والسهو ، حتى عادت لا
تأبه لما يحيط بها من الضرر وما يحيق بها من الخطر .

ومما لا شك فيه أن هذا الزمن - زمن الاختلال
والاضطراب الذي يسير بنا - كمثل تلك الآونة المضطربة،
قد اهتاج فيه خضمّ الحياة الانسانية وطغت مياهه طغياناً.
فأنت ترى النزاع قائماً على أشده ما بين قطر وقطر وبين
أمة وأمة وبين شعب وشعب . ثم قد بلغ من غلوائه
في المجتمع الانساني مبلغاً لم يقتصر على الطوائف والشعوب
فحسب ، بل جاوزها إلى الأفراد والأشخاص وجرهم الى
ساحة النزال وميدان الصراع كفعله في الأمم والأقطار.
وأفضى الأمر إلى أن معظم هذا العالم البشري قد تهوع
ما كان في جوفه متراكماً منذ زمن مديد وقذفه إلى

الخارج حيث يراه كل ذي عينين ؛ فأصبحت ترى ما كان مستوراً في الطبائع والأخلاق البشرية من القذر والنجس عارياً منكشفاً ، ولم تكن لتطلع عليه فيها من قبل إلا بتدقيق النظر والتفحص البالغ . وانكشف القناع عن حال المجتمع الانساني ، فلم يبق من يحسب أن جسمه صحيح لم يدب فيه دبيب المرض إلا من سفه نفسه أو أغمض عينيه عن حقائق الدنيا ؛ ولا يسع الآن أحداً أن ينام عن البحث في منشأ ذلك المرض ويغفل عن أمر علاجه إلا من كان كالبهيمة والانعام ليس فيه اثارة من الشعور الخلقي ، وإلا من فُلج فيه الحس والشعور وخدرت أعصابه .

فها أنت ترى أن الأمم والشعوب بأجمعها قد بدت فيها الأخلاق الفاسدة والغرائز السيئة التي لم يزل ولا يزال الضمير الانساني يمقتها ويزدريها في كل زمان . ولم يعد الظلم والقساوة ، والايذاء والتعذيب ، والكذب والخديعة ، ونقض العهد والمكيدة ، والخيانة والوقاحة ، واتباع الشهوات والاستئثار والاستغلال وما شاكله من المآثم — مآثم يأتيها الأفراد ويرتكبها الأشخاص وحدهم ، بل أصبحت هي الأخلاق القومية والعوائد الانسانية

الاجتماعية . فترى الأمم الكبيرة والدول العظيمة تقترف – في هيئتها الاجتماعية – جميع المعاصي والجرائم التي لا يزال أفرادها يعاقبون عليها ويدخلون السجن من أجلها . وقد انتخبت كل أمة من بينها أكابر مجرميها وأهل المكر والخديعة والخلق السيء فيها وألقت اليهم زمام أمرها وأسلست لهم قيادها ، ثم اتبعتهم اتباع الظل لصاحبه وسارت حيثما ساروا ، ولم تبق صورة من أقبح صور الخبث والفساد إلا ارتكبتها بكل وقاحة على مرأىً من العالم ومشهد. وغدت الطوائف والشعوب يفتري بعضهـــا على بعض الكذب ويعلنه ويُشيعه في الآفاق ، حتى قد اغبرَّ الجو وتنجس الاثير كله بمـا تنشره الاذاعـة صباح مساء من الكذب والافتراء .

هذا وقد استحال أهالي الأقطار وسكان القارات بأجمعها عصائب من اللصوص وقطاع الطرق . ثم ترى أحدهم لا يتأثم أن يعقب على مثله من المجرمين ، ولا يتحرج أن يندد بنظيره من جماعة اللصوص ويعلن بذنوبه ومساوىء أعماله في غير ما حشمة ، بينما يكون هو نفسه آخذاً في سلب أموال الناس ونهبها وقتل الأنفس وتدمير المـدن وتخريب العمران ، وما تكون صحيفة أعماله بأقل سواداً

من أعمال صاحبه . وأما العدل والنصفة فقد ضاقت معانيها عند اولئك الغاشمين المتعسفين إذ لم يبق معنى العدل عندهم إلا إقامة العدل في شعوبهم وأممهم ليس غير . وزعموا أنه ليس الحق إلا لهم وفيهم وأذنت لهم أخلاقهم العالية أن يبخسوا حقوق غيرهم ويغمطوها كما تشاء أهواؤهم وشهواتهم ويعدوا ذلك حسنة جاؤوا بها . ثم قد بلغ سوء الطوية والغش والخيانة في الأكثرية الساحقة من الأمم مبلغاً جعلها اذا اكتالت على الناس استوفت واذا كالتهم أو وزنتهم أخسرت ، وسوّل لها أن تضع لمصالحها ومنافع ذاتها مقاييس للخير والشر ، ثم لا تلبث أن تقلبها جميعاً رأساً على عقب كلما عرفت منافع أمة أُخرى معارضة لها ؛ وأن لا تأخذ نفسها بالعمل بتلك الأقدار والمقاييس الخلقية التي تطالب اخواتها ونظائرها بالاستمساك بها .

ذلك وقد فشا فيها مرض الغدر وخيانة العهد حتى عاد بعضها لا يثق ببعض ولا يعتمد عليه ، فترى أنه حينما يكون المندوبون من كبار الأمم والدول مجتمعين يوقعون على المواثيق والمعاهدات الدولية فيما بينهم ، متظاهرين بكل جد ووقار ، في تلك الساعة نفسها

يضمرون في أنفسهم أن سيضحون بذلك النسك المقدس لأول فرصـــة تسنح لهم اذا دعت الى ذلك مطامعهم وأغراضهم القومية . وإن عجبت فاعجب أنه اذا جاء من أمة زعيمها أو رئيس وزرائها يُرهف سكينه استعداداً لذبح ذلك القربان المقدس ، ويتهيأ لنقض العهد من بعـد ميثاقه لم يقم من بين شعوبها رجل واحد ينكر عليه ويستشنع تلك المفسدة الخلقية ـ نقض العهد ، بل تؤيده الأمة بحذافيرهـا وتشاركه وتظاهره في تلك الجريمـة . واستشرى المكر والخديعة والنفاق حتى أخذ يلهج اخوان الخداع والمكيدة بذكر الاخلاق الحسنة والمبادىء الطيبة العالية ، متوخين بذلك أن يخدعوا الجماهير ويستخدموهم في سبل اغراضهم ومصالحهم ، وأن يؤكدوا للسُّذَّج البُله من الناس انهم ليسوا يطالبونهم بما يطالبون به من بذل الأنفس والأموال لغرض في نفوسهم أو لمنفعة من منافع ذاتهم ، وانما هم ـ معشر المخلصين والمصلحين ـ لا يعانون كل تلك المشاكل والصعاب إلا لسعادة الخلق وخير الانسانية .

وأما القساوة والفظاظة فحدث عن البحر ولا حرج . فهذه الدول الكبيرة اذا أغارت اليوم احداها على أخراها ،

لم تقتصر على أن تطأ خصومها وتدوسهم تحت أقدامها دوْس الحصيد من دون أن تأخذها رأفة أو رحمة ، بل زاد الطين بلة انها تعلن على لسان الاذاعة بكل نشاط وارتياح ما اقترفته من الفظائع واعمال السوء ؛ كأنها على ثقة بأن الدنيا قد أقفرت من الأناسي ذوي العقول والأفئدة ولا يعمرها الا الذئاب والوحوش الضارية .

وكذلك حال الأثرة والظلم والاستبداد ، فترى الأمم الكبيرة اذا غلبت امماً ضعافاً وذللتها بالقوة لأغراضها ومصالحها ، لا تجتزىء بأن تطلق فيها يد السلب والنهب في غير ما رفق ولا رحمة ، بل هي تظل تحاول بوسائل منظمة وطرق مدبرة أن تنزع عنها لباس العز والاباء وتجردها من جميع الاخلاق الشريفة والخصال المحمودة ، وتبذل جهودها أن تنشّىء فيها بدلاً من ذلك جميع المفاسد ، وتربي فيها جميع المساوىء الخلقية التي تستهجنها - هي نفسها - وتستشنعها .

هذه اللـمّة من المفاسد الكبيرة والرذائل الخلقية البارزة ، انما ذكرتها مثالاً وأنموذجاً وما هذا إلا قطرة من بحر أو حبة من صبرة . وأما اذا أمعنت في التأمل وتقصيت نظرك في انحاء المجتمع البشري ، نبين لك ان

الانسانية بأسرها قد أخمّ وأنتن جسمها بفساد الاخلاق وخبث الغرائز والطباع ، فبينما كانت بيوت البغاء والقمار ومجالس الخمر واللهو تعد أقبح أماكن الفساد وأحقر مكانس الشر واكبر دُمَّل في جسم المجتمع البشري من قبل ، فانك اليوم حيثما تنظر ، تجد المدنية الانسانية - من الشرق الى الغرب - قد مشى في جنباتها الخلل والفساد ، وشرى سائر جسمها وتقيح وتراكمت فيه المواد الفاسدة فأصبحت بأجمعها دملاً مُمِداً . هذه البرلمانات والمجالس التشريعية ، والوزارات والمكاتب الرسمية ، وقاعات المحاكم ومكاتب المحامين ، والمطابع ومحطات الاذاعة ، والجامعات والمعاهد التعليمية ، والمعارف ومراكز التجارة والصناعة - كل هذه المظاهر للمدنية والعمران الانساني إن هي إلا قروح دامية وجروح متقيحة ، تقتضي لعلاجها أن تتداركها يد الجرّاح النطاسي . واكبر الرزء وآفة الآفات أن العلم والمعرفة مما كان ولا شك أغلى ما آتاه الله تعالى الانسان من الفضائل ، أصبحت اليوم تستخدم بكل شعبها وفروعها في إبادة الانسانية واتلاف العمران . وإن القوة وسائر وسائل الحياة التي خلقها الله تعالى للانسان واعدها له ليستعملها في الخير ،

قد أضاعتها الانسانية وأتلفتها باستعمالها اياها في سبل الفساد والدمار ؛ حتى الصفات الانسانية التي كانت ولا تزال تعد في الانسان من المكارم والفضائل كالبسالة والايثار وبذل النفس والنفيس في وجوه الخير ، والسخاء والصبر والاناة وعلو الهمة وقوة العزيمة - كل اولئك جعلها الانسان وسيلة الى المفاسد والرذائل الخلقية الكبيرة واتخذها آلة وأداة للشر والفساد .

ومن الواضح البين أن المجتمعات البشرية لا يسودها الفساد الاجتماعي ولا تتفشى فيها الخبائث ولا تغلبها إلا اذا كانت قد بلغت غايتها ومنتهاها في الافراد والاشخاص . وأنت تكاد لا تتصور أن يكون معظم المجتمع متألفاً من نفوس مطهرة وافراد صالحين ثم يبدو في هيئته الجماعية متسماً بسمة الفسق والفجور والطغيان . وكذلك لا يتأتى ابداً في مجتمع من الناس أن يفوض أولو البر والصلاح زمام قيادتهم ونيابتهم الى رجال الفسق والعصيان ويضعوا مقاليد أمورهم في الأيدي الباغية المفسدة ، ثم يتركوهم ويخلوا سبيلهم ليسيروا دفة أمورهم القومية ويعالجوا شؤونهم الوطنية ومسائلهم الدولية على غير القواعد والاصول الخلقية . لذلك اذا كنت ترى الأمم العالمية تعلن بكل خلق سيء مذموم وطبع فاسد مرذول في

هيئاتها ومؤسساتها الجماعية على نطاق واسع ، فان ذلك لدليل على أن النوع البشري ، على الرغم مما بلغ من التقدم والرقي في ميادين العلم والمعرفة والمدنية ، قد ابتلي بانحطاط خلقي شديد ، وقد سرى الداء الى معظم أفراده وأشخاصه فتمكن منهم . ولعمر الحق انه ان تقدمت به الحال واستمرت على هذا المنهاج وبقيت تتنزل به من الأعلى الى الأسفل ، أوشكت الانسانية أن تلقى البوار وتتردى بأجمعها في هاوية الهلاك والدمار ، فتغشاها غاشية الظلام والخمول الى زمن مديد .

فالآن اذا كنا لا نريد أن نتهاون بتلك الداهية ونتعامى عن ذلك الشر المتفاقم وكنا لا نرتضي لأنفسنا ان يعمنا البلاء فيما يعم ، فمن واجبنا أن نتدبر الأمر حق التدبر ونبحث عن الينبوع الذي لا يزال يتدفق منه هذا الفساد ويفيض منه سيله الجارف إلى ارجاء المجتمع الانساني . ولما كان هذا الفساد لم يتطرق إلا إلى الاخلاق والعوائد الانسانية ، إذن لا نجد مأتاه ومصدره إلا في الافكار والتصورات الشائعة في باب الاخلاق في هذا الزمان .

وما هي تلك الافكار والتصورات الشائعة اليوم في

باب الاخلاق ؟ اذا فكرنا في هذه المسألة وبحثنا وألطفنا النظر فيها ، علمنا أنهـــا تحتوي على نوعين اثنين باعتبار مبادئها واصولها :

فالنوع الأول عبارة عن التصورات التي يقوم بنيانها على مبدإ الايمـان بالله وبالحياة الآخرة ، والنوع الثاني يشتمل على سائر التصورات التي يقوم بنيانها على مبادىء أخرى مغايرة لتلك العقيدة — عقيدة الايمان بالله وبالحياة الآخرة .

وهيا بنا في هذا المقام نسرّح النظر في هذين النوعين من التصورات الشائعـة بصدد الأخلاق وندرسهما درس الباحث المتبصر لـنرى في أي شكل يوجدان الآن في أرجاء العالم ، وما هي آثارهما ونتائجهما في المجتمع البشري .

ومما لا يخفى على العــالم البصير أن التصورات التى ينهض بنيانها على دعائم الايمان بالله والحياة الآخرة ، فانه يتحدد وضعها وصورتها بكيفية الايمان الذي يؤمنه الناس بالله وباليوم الآخر ومقتضياته ، ولذلك ينبغي لنا أن نرسل الطرف رائداً في ربوع العالم لنرى بأي وجه وفي أي شكل لا يزال النوع البشري يؤمن بالله وما هو تصوره العام وأفكاره الشائعة الرائجة بصدد الحياة الآخرة .

وإذا استجلينا الأمر ودرسناه ، تبين لنا أن السواد الأعظم من الشعوب التي تؤمن بالله قد ارتطموا في ورطة الشرك ، فأشركوا بالله أرباباً وآلهـة أخرى ما نزّل الله بهـا من سلطان . ووزعوا عليها – في زعمهم – معظم سلطات الألوهية التي لها دخل في شؤون حياتهم اليومية ، وتصوروا تلك الآلهة في مخيلاتهم حسبما تشاء أهواؤهم ، فتمثلوها آلهة مطواعة منقادة لا تستعمل قوتها ولا سلطتها الألوهيـة إلا في ما يريدون ، ولا تتصرف في شؤونهم إلا وفقاً لأهوائهم ورغباتهم . فهؤلاء إن يأتوا السيئات ويقترفوا الذنوب ، تشفع لهم الى الله وتستغفر لهـم ؛ وإن يرتعوا في مراتع العالم أحراراً طلقاء من دون أن يشعروا لأنفسهم بواجب أو يراعوا لغيرهم حقاً ، ويرعوا في مراعيه كالبهيمة المسرّحة لا يميزون بين الخبيث والطيب ولا بين الغثّ والسمين ، تضمن لهم آلهتهم النجاة والفلاح الأبدي جزاء ما يقدمون بين يديهـا من نذر معلوم أو صدقة معينة . وإن تعجب فعجبٌ ظنهم بتلك الآلهة أنه اذا خرج أحدهم ليسرق ، كلأته بعنايتها وحرسته من عيون الشرطة . وضربت على أعين الحارس وهو يقترف ما يقترف . فكأنه قد تمت الصفقـة بين الجانبين – تلك الآلهة وهؤلاء المشركين – وانعقد العهد بينهما على أن

هؤلاء من واجبهم أن يؤمنوا بها الايمان الراسخ ويعتقدوا بهـا كل الخير ، ويواظبوا على تقديم النذور والصدقات الى جنابها المقدس ، فتجازيهم الآلهة على ذلك بأن تيسر لهم أمورهم وتوفقهم في كل مايريدون من خير أو شر ، ثم إنهم إذا بُعثوا بعـــد موتهم وأحضروا بين يدي الرب تعالى يوم القيامة ، جاءت آلهتهم وعصمتهم من أمره وشفعت لهم لديه قائلة : هؤلاء من حاشيتنا وغرس أيدينا ، فاللهم جاوز عنهم ولا تؤاخذهم . ومنهم من لا يُحشرون إلى ربهم ولا يُحاسبون البتة ، بل يدخلون الجنـة من دون حساب ومن دون أن يقام لهم ميزان : ذلك بأنه قد كفَّر بعض تلك الآلهة من ذي قبل عن كل ما قدمت ايديهم في حياتهم الدنيا من ذنب أو إثم وما اكتسبوا فيها من سيئة أو معصية .

* * *

هذه العقائد الباطلة والأوهام المنبعثة عن الشرك قد شوهت وجه الايمان بالحياة الآخرة بعد الممات ، ومن نتائجهـا الفاسدة أنه قد نخرت وتأكّلت جميع القواعد الخلقيـــة التي قد كانت رفعتها الأديان السماوية وأثبتتها الشرائع الالهية . أما القواعد والأصول الخلقية فلا ريب

أنها مكتوبة في صفحات الكتب ، ولا يزال النـــاس يلهجون بذكرها بكل جلال وأدب ، ولكن الحقيقة التي لا مراء فيهـــا أن الشرك وما ينشأ عنه من العقائد والأوهام قد خيَّل الى المشركين أن لهم مخارج وأبواباً متعددة وسبلاً كثيرة متشعبة ليتخذوها مفراً ومناصا من تقيدهم بتلك القواعد والأصول الخلقية ومن تمسكهم بها في أعمالهم وشؤون حياتهم ، وقد أكدت في نفوسهم أنهم اذا انفلتوا من قيود الأخلاق وتعدوا حدودها ، فمن أي مخرج انفلتوا ومن أي تلك السبل تملصوا ، فإنهم لا بد منتهون إلى غاية الفوز والفلاح وواصلون الى شاطىء النجاة في عاقبة الأمر .

واذا انصرفت بنظرك عن الشرك إلى أديان أخرى حيث يوجد الايمان بالله وبالبعث ويوم القيامة على وضع أحسن من وضعه عند المشركين وفي صورة أكمل من صورته عندهم ، لم ترَها بأمثل حالاً . فإنك ترى هنالك أن أوامر الله ومقتضيات الايمان به قد تقلصت وانحصرت في دائرة ضيقة ونطاق محدود من شؤون الحياة الانسانية . فأعمال معدودة يأتونها ، وشعائر معينة يقيمونها وحدود معلومة يتقونها — ذلك كل ما يطالبهم به الله – كما زعموا – وأقصى ما يأمرهم به في نطـاق ضيق من حياتهم الفردية

والعائلية ، وهذه هي جميع الأعمال التي قد أعد الله لهم جزاءً لها جنة واسعة عرضها السماوات والأرض . فإن هم قاموا بتلك الواجبات الـلميـلة وأدوا تلك الفرائض المعدودة قِبَل الرب تعالى ، لم يبق أمامهم بعد ذلك واجب من واجبات الله يقومون به أو أمر من أوامر الله يمتثلونه ، بل هم بعد مستقلون مختارون في أعمالهم وأفعالهم ولهم الخيار كل الخيار في أن يُديروا شؤون حياتهم اليومية حسبما تشاء أهواؤهم وشهواتهم . ثم إن ظهر منهم التفريط في تلك الواجبات والفرائض القليلة ، فليكن ذلك ولا يبالون به ، فرحمة الله واسعة وفضله عميم شامل والله تعالى مرجوٌ أن يضع عنهم إصر ذنوبهم ومآثمهم ، ويحط عنهم بباب الجنة وزر معاصيهم وخطيئاتهم ، ويتولاهم بفضله الخاص فيُدخلهم بالعز والكرامة جنات عدن تجري من تحتها الأنهار .

إن تصور الدين هذا التصور المحدود الضيق قد حدَّ من تطبيق القواعد الخلقية التي وضعتها الشرائع والأديان السماوية ، لشؤون الحياة المختلفة وقلّل من تأثيرها في نشاط الاجتماع الانساني . وقد أدى ذلك الى أن تخلصت جميع شعب الحياة الانسانية الكبيرة وفروعها المهمة الخطيرة من أي ارشاد أو هداية ، ومن أية حدود أو

قيود خلقية كانت النحل والأديان حريَّة أن تهيئها للانسان وتزوده بها . ثم ان هذه الدائرة الضيقة للايمان بالله واليوم الآخر ، لا تخلو من ثلمة متسعة وطريق واسعة للفرار ، يتيسر للذين يريدون أن ينفلتوا من قيود الأخلاق ويتخلصوا من أغلالها أن يتخذوها مفراً ومخرجاً وقلما تراهم يتقاعدون عن انتهاز هذه الفرصة السانحة .

* * *

أما الطوائف الدينية التي هي أحسن حالاً وأصحّ إيماناً من الفئتين المذكورتين آنفاً والتي هي بريئة من الشرك ومؤمنة بالله إيماناً صادقاً ، ولم تتخذ من دون الله لأنفسها أولياء ولا أنصاراً كاذبين ينصرونها ويُجيرونها من الله يوم القيامة ، فلا شك أنك تجد فيهم أخلاقاً طاهرة ونفوساً زكية وترى من بينهم رجالاً نُزَهاء ذوي أخلاق كريمة وأعمالٍ سنيَّة ، إلا أن الحق الذي لامراء فيه أنه قد أفسد عليها أمر دينها في عامّة الاحوال ما استولى على أفكارهم من تصوُّرهم الضيق المحدود للدين وللعلاقة الروحية بين الله وبين العبد . إن أصحاب هذه الطوائف ينصرفون بوجوههم عن الدنيا وينقطعون عن مسائل الحياة وأمور المعيشة كلَّ الانقطاع ، وينقطعون

إلى طائفة من الاعمال يقومون بها ويحافظون عليها ويعضّون عليها بالنواجذ ، يحسبون أن ذلك كل مايقتضيه الدين ويُطالب به الايمان . ومنهم من يشتغل بنفسه يجلوها ويزكيها بأعمالٍ من الرياضة حتى يؤهّل نفسه لأن يستمع في هذا العالم المادي أصواتاً من عالم الغيب أو يشيم بارقة من الجمال الالهي . ومما يظنّون أن طريق الفلاح والسعادة ما كان ليدخل غمارَ الحياة الدنيا ، بل هو يتزاور عنه ويمرّ به متجنباً ؛ وأنه ما من سبيل إلى نيل التقرّب والزلفى لدى الرب تعالى إلا أن يصوغ المرء بعض وجوه حياته الظاهرة وبعض جوانبها البارزة في الشكل الذي رسمتْه الشرائع والأديان ، ثم يجلو روحه ويصقل نفسه بالطُرُق والرياضات المخصوصة ، فيقضي بعد ذلك أيام حياته مشتغلاً في طائفةٍ من الاعمال الدينية والوظائف الروحية ، كل ذلك في دائرة ضيقة من حياته ؛ كأنّ بهم لم يشأ ربهم من خلقه لهذا الكون إلا أن تتهيأ له آنية من الزجاج أنيقة ، وأدوات من الحاكية أو مكبر الصوت بديعة ، ومذياع نفيس ، وآلات للتصوير رائعة فبعث النوع الانساني في هذه الدنيا بكل هذا المتاع والجهاز المبثوث بين يديه في أطراف الكائنات ليحول نفسه ، بعمل التزكية والرياضة الروحية ، إلى تلك الأدوات

والآلات ثم يرجع إلى ربه آمناً مطمئناً .

إن أعظم الضرر وأكبر الآفات التي قد جرّها هذا التصور المحدود المخطىء للدين وللنظام الروحي ، على البشرية هو أنه قد تنحّى وابتعد بأولي الاخلاق العالية والنفوس الزكية عن ميدان الحياة ومضمار الكفاح ، وانزوى بهم إلى زوايا الخلوة والكهوف والمغاور . فخلا الميدانُ بعدهم بطبيعة الحال لمن خلقهم في غمار الدنيا من ذوي الاخلاق الدنيئة وأصحاب الطباع الرذيلة ، وصدَقَ المثلُ : خلا لكِ الجوُّ فبِيضي واصفري !

* * *

هذه هي خلاصة ماعليه الدنيا في هذه الآونة من الحالة الدينية ، ويتيسر لك بالنظر فيها أن تُدرك أن معظم الطوائف البشرية قد نبذُوا الدينَ فحُرموا ماكان في الايمان بالله وعبادته من القوة الخلقية والروحانية . أما الطائفة القليلة العدد من البشر التي لاتزال تستمد تلك القوة الخُلقية من الدين وتستفيد منها ، فقد تنازلت ، من تلقاء نفسها ، عن قيادة النوع البشري وتخلت عن ميدان الكفاح . فجاء مثلها كمثل وعاء مشحون بالكهرباء أُهمل

وتُرك وشأنه لا يُستخدم ولا يُنتفع به ، فنفد تيّاره الكهربائي وانقطعت حياته .

إنّ الذين يملكون زمام المدنية الانسانية ويُديرون رَحاها في هذه الآونة ، قد خلَتْ مبادئهم الخلقية من الايمان بالله واليوم الآخر . بل أخرجوا من مبادئهم الخُلقية ما يحيط بها ويلزمها من الحدود والقيود التي تجيء بها العقيدة بالله واليوم الآخر . ثم داخلَتْهم الأنفةُ وغرهم بالدين ما انتحلوا من الفلسفة الخلقية فاستكبروا عن أن يهتدوا بهدْى الله تعالى في باب الاخلاق ويستضيئوا فيه بنور ارشاده . وإنهم وإن كان معظمهم يدينون بنحلة من نحل العالم ، إلا أنهم يزعمون أن النحلة لا تعدو أن تكون مسألةً شخصية تتصل بالفرد دون الجماعة من البشر ، فلتكن محدودة في ذات الشخص ومحصورة في اعماله الفردية ؛ ويقولون إنه إذا لم تكن للنحل والاديان أية علاقة بالحياة الاجتماعية ومسائلها وشؤونها ولم تكن هذه في وِرْدٍ ولا صَدرٍ من ذلك ، فما الحاجةُ بهم إلى أن يلجأوا لتدبير شؤون حياتهم إلى هداية سماوية ويهتدوا لتنظيم امورهم بتعليم إلهي .

* * *

ان الحركة الخلقية التي ابتدأت في اواخر القرن الماضي في اميركا ، ثم طغى موجُها وامتد منها الى انكلترة وسائر الاقطار ، قد فُصّل مبدأها الاساسي في بيان مقاصد « الرابطة الخلقية الاميركية » (American Ethical Union) . بالعبارة الآتية : —

« ان تؤكد في النفوس اهمية الاخلاق وخُطورتها في العلاقات والروابط المختلفة في الحياة الانسانية ، فردية كانت أو اجتماعية أو وطنية أو دولية ؛ وذلك من غير ان يكون للعقائد الدينية والتصورات الالهية أدنى مدخل في ذلك . . »

وتبعاً لهذه الحركة قامت في انكلترا رابطة الجمعيات الخلقية (Union Ethical Societies) التي انضمت بعدُ الى الرابطة الخلقية الاميركية وبُيّن هدفها الجوهري بما يلي : —

« ان تلقن الشعوب منهاجاً للخدمة الانسانية والتعاون والتضامن ، يكون من اصوله :

أولاً : ان الاديان اكبر مقاصدها ان تبعث في النفوس محبة الخير .

ثانياً : انه لا حاجة بالمرء في تصوراته وحياته الخلقية أن يعتقد عقيدة بحقيقة هذه الدنيا وبالحياة الآخرة بعد الممات .

ثالثاً : ان يربى النوع البشري وينشأ لمعرفة الحق ومحبته والعمل بمقتضاه في جميع شؤون حياته - كل ذلك بوسائل انسانية محضة وطرق نظرية خالصة فحسب ! »

فقد جاءت هذه العبارات كما ترى تعرب عن نزعات الطبقة التي تتبوأ في الدنيا منزلة القيادة والسيادة في ميادين الفكر والثقافة ، وفي محيط المدنية والشؤون الاجتماعية . والحق ان الذين بأيديهم اليوم مقاليد امور العالم قد سيطر على اذهانهم تصور الدين المحدود الباطل الذي قد مرّ ذكره في العبارات المذكورة آنفاً . فانهم جميعاً قد حرروا مبادئهم الخلقية من الايمان بالله وباليوم الآخر وجردوها تجريداً من هداية الاديان في باب الاخلاق .

* * *

فالآن يجمل بنا ان ندرس مابين ايدينا من الفلسفات الخلقية المختلفة التي اختارها الانسان بعد ان اعرض عن الدين بجانبه وتنكب عن هدايته ، لنتبين امرها ونستجلي حقيقتها .

ان أول سؤال جوهري في فلسفة الاخلاق هو : ما هو الخير الحقيقي الاعلى الذي ينبغي ان يكون الهدف المرمى والغاية المرجوة لسعي البشر وعمله في هذه الدنيا ويكون معياراً عاماً تقاس عليه اعمال الناس وافعالهم فيحكم عليها بالحسن او القبح وبالصواب او الخطأ . وهذا السؤال حقاً لم يتمكن الانسان من ان يجد له جواباً واحداً متفقاً عليه ، بل اختلف فيه الناس كثيراً وذهبوا فيه مذاهب متشعبة . ففريق يظن ان ذلك الخير الحقيقي الاعلى هو المسرة . وفريق يظن ان ذلك الخير هو الكمال ، وآخر يعتقد انه اداء الواجب لأجل الواجب .

أما المسرة فتوجّه الى القائلين بها اسئلة شتى في بابها عليهم أن يردّوا عليها بأجوبة شافية ، منها : ما هي حقيقة تلك المسرة ؟ هل هي مسرّة ينالها المرء بتحقيق شهواته الجسدية والنفسية أم هي التي ينالها المرء بصعوده في معارج الرقي العقلي ، أو هي التي يشعر بها المرء بتحلية شخصه بحلى الفن والذوق والسموّ الروحي ؟ — ثم من هم اصحاب هذه المسرة ؟ ؟ أهي مسرة كلّ فرد انساني منفرداً ، ام هي مسرة الجماعة التي يتصل بها

الانسان وينتسب اليها ، أو هي مسرة النوع البشري جميعاً ، أو هي مسرة ينالها الآخر أياً كان !!

وكذلك توَجَّه الى من يعد الكمال هو الغاية المنشودة والهدف المقصود ، أسئلة متعددة هي : ما هو تصوُّر الكمال في مخيَّلاتهم ؟ وما هو مقياسه ومعياره عندهم ؟ وكمال من هو المقصود ؟ — أكمال الفرد ، أم كمال الجماعة ، أم كمال الانسانية جمعاء ؟

وعلى غرار ذلك من يقولون بأداء الواجب لاجل الواجب ويعدُّون الاطاعة الكاملة والخضوع التام لأمر الضمير النهائي [1] (Categorical Imperative) ، هو الخير الحقيقي الأعلى فانه ينبعث لهم هذا السؤال وهو : ما هي حقيقة ذلك القانون ؟ ومن وضعه وشرعه ؟ ومن هذا الواضع للقانون الذي يجب الخضوع والانقياد لما يشرعه ويضعه لأنه هو وضعه وشرعه ؟

ان الأجوبة على هذه الأسئلة مختلفة متباينة عند الفرق والجماعات المختلفة ، وهي لا تختلف عندها في مجال الفكر وفي كتب الفلسفة فحسب ، بل تختلف كذلك في ميدان عملها . فهذا الحشد الكبير الذي تراه اليوم

---

(١) هذا مصطلح ابتدعه الفيلسوف الشهير Kant .

يدير رَحى المدنيـــة الانسانية ويحرك دواليبها ، والذي يشتمل على وزراء الدول وقواد الجنود وقضاة المحـاكم وشارعي القوانين للمعاملات الانسانية ، وعلى المعلمـين المربين للنشء البشري ، وأهل الصناعة والتجارة المالكين لوسائل الثروة وأسباب المعيشة ، ثم العاملين في معمل المدنية الانسانية بمنازل مختلفـة ومدارج متفاوتة ــ هذا الحشد الكبير الذي يشتمل على كل اولئك ، ليس بين يديه وايم الله معيار واحد متفق عليـــه للخير الحقيقي الأعلى ؛ بل ينفرد كل فرد منه بمعياره الخاص وتختص جميع الفرق والجماعات فيه بمقاييسها المنفردة ، وانهم وان كانوا متعاملين في نظام مدني واحـد ، غير انه لكل منهم وجهة هو موليّـها . فهذا يعد المسرة منتهى سعيه ، وغاية أمله في حياته ، ويريد بتلك المسرة تحقيق أهوائه النفسية وشهواته الجسدية ، وذاك يسعى وراء مســرة ذاتية ولكنه يريد بذلك في نفسه ويضمر في قلبه شيئاً آخر ، فيتخذ أعماله وأفعاله حسب حصول تلك المسـرة عنده او عدم حصولها ويعدُّها خيراً او شراً ويحـكم عليها بالصلاح او الفساد ، ولكنّ ما يظهر لنا من سمته الوقور وهيئته المهذَّبة يُخيِّـل الينا انه عضو صالح من اعضاء المدنية الانسانية ، لكونه وزيراً محنَّـكا أو قاضياً

منصفاً او معلماً بارعاً . وكذلك ثَمّ من يريد بتلك المسرة مسرة الجماعة الانسانية المحدودة ورغدها ورفاهيتها التي تصل بينه وبينها اغراضه الذاتية ومطامعه الشخصية وهذه المسرة هي عنده الخير الحقيقي الأعلى الذي يعد البرّ كل البر في السعي وراءه ومتابعة الجد والعمل في سبيل الحصول عليه . ولمّا بلغ بالمرء وجهة نظره السقيم الى هذه الحال ، عاد لا يحب إلا شعبه ولا يؤثر الا أمته ووطنه ، وينقلب لسواها من الشعوب والامم حية وعقرباً لساعاً . ولكننا ننخدع بهيئته الجميلة وزيه الرائق المعجب فنحسبه رجلاً كريماً وانساناً ذا مروءة . وكذلك حال المعتقدين بكون الكمال هو الخير الحقيقي الأعلى وحال القائلين بأداء الواجب لأجل الواجب ، فترى فيهم جميع تلك الانواع المختلفه للافراد والشخصيات ممن تأتي نظرياتهم وتصوراتهم في مضرتها للثقافة والمدنية الانسانية وسوء عواقبها في الحياة العملية كالسم الناقع ، ولكنهم قد أرخوا عليها سدول التدبُّر والتحقيق والفلسفة ، وعرضوا على الناس سمهم باسم الترياق ، ولايزالون يندمجون في حياتنا الاجتماعية . وينفثون فيها سمومهم .

* * *

هذا ، والسؤال الثاني الاهم من الاسئلة الاساسية في فلسفة الاخلاق هو : بأي وسيلة نعرف الخير والشر ؟ وما هو المصدر الذي ينبغي لنا ان نرجع اليه لنعلم ما الحسن وما القبيح ، ولنميز بين الصحيح والخطأ ؟

وهذا السؤال ايضاً لم يتمكن الانسان من ان يجد له جواباً واحداً مقنعاً ، بل قد تعددت في حله مذاهب الناس وأتوا له بأجوبة شتى . فمن قائل : ان تلك الوسيلة لمعرفة الخير والشر ، وهذا المصدر الذي نعلم منه الصحيح والخطأ ، هما التجارب الانسانية . ومن قائل : انهما معرفة نواميس الحياة واحوال الوجود . ويقول الثالث : انهما الوجدان فحسب ! ويظن الرابع انهما العقل ليس غير ! ـ وهنا يبلغ من الفوضى والاضطراب ما قد شاهدته بصدد البحث في السؤال الاول غايتَه ، ويفضي الى منتهاه . فانه اذا اتخذ الانسان هذه الامور المختلفة مآخذ ومصادر لمعرفة الخير والشر ، فكأنه قد اثبت قاعدة للاخلاق : هي الا يكون للاخلاق مقياس واحد محدد ، بل تكون هذه كالمعدن الذائب ، تسيل وتتشكل في مختلف الصور ، وتنصاغ في شتى الصيغ .

اما تجارب النوع البشري فلأجل الانتفاع بها

واستمداد المعرفة الصحيحة منها لا مندوحة للبشر عن ان تكون جميع المعلومات التي تتصل بها متجمعة بين يديه كاملة مفصلة ، ثم يتناولها ذهن واسع أفق النظر ، معتدل كل الاعتدال ، فيستنبط منها النتائج ويستخرج منها المعرفة الصحيحة . ولكن الحق ان كلا الشيئين غير حاصل لدى الانسان . وذلك ان تجارب النوع البشري لم تنته بعد ولم تبلغ غايتها ، بل هي لا تزال سائرة في طريقها . ثم ان التجارب التي حازتها الانسانية الى الآن ليست حاصلة بين يدي المرء متجمعة ، بل يوجد مختلف اجزائها بين يدي اناس مختلفين ، وهم لايزالون يستخرجون منها النتائج بطرق مختلفة حسب ما تهدي اليه عقولهم وميولهم . فهل من الممكن يا ترى ان تكون جميع النتائج التي تستخرجها العقول الناقصة المختلفة من تلك المعلومات الناقصة المحدودة وفقاً لميولها ورغباتها ، صحيحة سالمة من كل خطأ . فاذا لم يكن ذلك من الممكن ، ولن يكون ابداً ، فما امرض تلك العقول التي تحسب وسيلة العلم هذه ـ اي تجارب الانسانية ـ كافية لمعرفة خيرها وشرها .

وكذلك شأن نواميس الحياة وأحوال الوجود إذا اتخذتها وسيلة إلى معرفة الخير والشر . فإنك إذا شئتَ

أن تعرف بهما الخير والشر في الاخلاق ، فأنت بين أمرين : إما أن تنتظر وتتمهل ريثما تستكمل علمك بتلك النواميس والاحوال ، وتكتسب المعرفة بهما إلى حد تطمئن اليه نفسُك ، وإما أن يتصدى للأمر أُناس مختلفة عقلياتهم متفاوتة مدارجهم في العلم ، فيتناولوا ماتيسر لهم من المعلومات الناقصة ويتخذوها — على علمهم بنقصها — أساساً للحكم في هذه المسألة ، فيظلّوا يحكمون على حِدَتهم ما الخير لهم وما الشر ! ثم يأتوا على ما حكموا وبتّوا فيه بالتبديل والتغيير كلما ازدادوا علماً وكلما تقدموا في معرفتهم بتلك الاحوال والنواميس خطوةً إلى الأمام . حتى يُصبح مايعدونه اليوم من الخير شراً غداً ، ويعود ما يحكمون عليه اليوم بالشر خيرا فيما يأتي من الايام .

وأما العقل والوجدان ، فليست تختلف حالهما عن حال ماسبق ذكره آنفاً . فلا شك أن العقل على جانب من الاستعداد لمعرفة الخير والشر ، وقد أُوتي كلٌّ بشر من ذلك العقل حظاً ، وكذلك لاريب أن معرفة الخير والشر يتصل جانب منها بالوجدان فيُلْهمه الانسانُ إلهاماً بطبعه وفطرته التي فُطر عليها ، ولكن الحق أنه ليس أي منهما كافياً بذاته لاحتياز تلك المعرفة المطلوبة ، حتى يتخذه الانسان وسيلة نهائية وحيدة إلى العلم والمعرفة

وإذا اكتفيتَ بأي من العقل والوجدان وحسبته كافياً بذاته ، كنت مستنداً الى وسيلة للعلم ليست ناقصة ومحدودة فحسب ، بل الواقع انها وسيلة يختلف حكمها في مختلف الأحوال والأوضاع ، فهي تحكم على الأشياء المختلفة المتباينة بالخير والشر اذا استعملها أناس مختلفون واستخدمتها طبقات متفرقة من الناس ، في أزمنة مختلفة وأوضاع شتى .

إن كل هذه الفوضى والاختلال الذي أشرنا اليه آنفاً ، لا ينحصر أمره في المقالات العلمية والمباحث الفلسفية ، بل تجد آثاره متجلية للعيان في مظاهر المدنية والثقافة في العالم اليوم ، فالطبقات العاملة في المدنية الحاضرة سواء أكانوا من الزعماء وأرباب الحل والعقد ، أم أتباعاً وأعضاء في الهيئة العاملة ، أم عاملين في إيجاد الزعماء والقادة بجانب ، وفي انشاء الطبقة العاملة المتبعة بجانب آخر — كل اولئك لا يفتأون يرجعون الى تلك المآخذ المختلفة ويتذرعون بها إلى معرفة الخير والشر على حدتهم ومنفردين متفرقين . فكل فرد منهم يحدد الخير والشر بمقياسه الخاص ، وكل طبقة من طبقات الناس تقيس الخير والشر بما اتخذته مقياساً لها . فخير هذا شر عند ذلك وشر ذلك خير عند هذا . ومما جنته هذه الفوضى

والاختلال على الأخلاق البشرية انه لم يُبق لها أساساً ثابتاً وقاعدة متينة ، فأنت ترى أنه قد عادت الأعمال والأفعال التي قد عدتهـا الانسانية منذ الأبد من المآثم والجرائم عين الخير عند طبقة من الطبقات الانسانية اليوم — وإن لم تكن خيراً محضاً فانها لا شك قد أصبحت خيراً نسبياً. وكذلك الفضائل والمكارم التي قد حكم عليهـا الانسان أبداً بالخير والصلاح قد أصبح أكثرها اليوم يعد حماقة وسفاهة وشيئاً مضحكاً ، فلا تزال الطبقات المختلفة تعبث بها علانية وتتهاون فيها بدون خجل ولاحياء ، بل بكل فخر وتبجح . كان الرجل الكاذب في الزمان الغابر مهما يكذب ويأت بالزور من الكلام ، كان يعـد الصدق قوام الأخلاق العالية ، لكن الفلسفات السائدة اليوم على عقول البشر قد جعلت الكذب والزور مكرمة وفضيلة ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أصبح تلفيق الكذب فناً عظيماً وعلماً برأسه . ولا تنفك الأمم والدول تنشر الكذب وتذيعه على أمواج الأثير على نطـاق واسع . وقل مثل ذلك في كل خلق سيء وكل عمل شنيع ، فبينما كان كل ذلك يعـد من مساوىء الاخلاق ورذائل الأعمال ، فقد حولتهـا اليوم تلك الفلسفة الجديدة في الأخلاق الى الخير المطلق او الخير النسبي .

والسؤال الثالث الأهم من الأسئلة الاساسية في فلسفة الأخلاق هو : ما هي القوة الوازعـة من وراء القوانين الخلقية ـ التي تنفذ هذه القوانين وتحمل الناس على اتباعها. فيجيب عليه محبو المسرة وعباد الكمال بأن الفضائل والمكارم التي تتصاعد بالأنسان في معارج المسرة والكمال تستطيع بنفسها أن تستحث المرء على اتباعهـا والاتيان بها ، وان المساوىء والمآثم التي تفضي بالانسان إلى الحزن والألم وتتردى به في هاوية الذلة والمسكنة ، فيهـا من الرادع ما يكفي أن يحذر الانسان إياها ويعرفه بهـا. فلا حاجة اذن بالقوانين الخلقية إلى سلطة خارجيـة تشد عضدها وتنفذ أمرها بين الناس. وتقول الطائفة الثانية التي تعتقد بأداء الواجب لأجل الواجب : إن قانون الواجب قد فرضته على الانسان ارادته العادلة ، فلا حاجة الى قوة خارجية تستعين بها القوانين الخلقية وتستند اليها. واما الطائفة الثالثة فتذهب الى ان السلطة السياسية هي القوة المنفذة الأصيلة لقوانين الاخلاق ، ومن ثمَّ ينتقل جميع السلطات التي كان يعتقد الانسان من قبل انهـا مخصوصة لله تعالى وحده الى الدولة ، فهي التي تحدد لأهالي الدولة سبل الحق والباطل ، وتوضح لهم معالم الطريق التي ينبغي لهم ان يتبعوها في حياتهم . وجاءت الطائفة

الرابعة ففوضت هذه السلطة والقوة الى المجتمع بدلاً من الدولة .

* * *

كل هذه الاجوبة المذكورة آنفاً قد جرت ولاتزال تجر على الدنيا ضروباً كثيرة وانواعاً متعددة من الشر والفساد . أما ما أجاب به الفلاسفة على السؤالين الاولين ، فقد زاد غواية الافراد وانانيتهم ، وافضى ذلك الى ان كاد نظام الحياة الاجتماعية يتبدد واوشك عقدها ان ينفرط وينتثر . ثم انتجت هذه الحال تلك الفلسفات المتعددة التي نجمت في عالم الفكر الانساني ، فجاء بعضها يرفع الدولة الى منزلة الاله المطاع وجعلت افراد القوم عبادها المنقادين لها المذعنين لامرها ؛ وجاءت الاخرى ففوضت الى المجتمع امر تعيين الخير والشر في الاخلاق كما فوضت اليه امر تدبير معاشهم واقواتهم . والحال انه ليس المجتمع ولا الدولة على شيء من العصمة والنزاهة التي يختص بها الله السبوح القدوس وحده .

وهذه الحالة نفسها يواجهها المرء اذا بحث في الجواب على هذا السؤال : ما هو العامل الذي يحض الانسان على العمل بالقوانين الخلقية والسير بمقتضاها على رغم أنف

ميوله ورغباته الفطرية . فهنا يقول بعض القوم : إن الطمع في المسرة والرغبة في الحبور ، والنفور من الاذى والالم يكفي به حافزاً يستحث الانسان على الاستمساك بتلك القوانين . ويقول فريق آخر : إن الرغبة في الكمال والطمع في تجنب النقص ، كفى بهما محرضاً على التقيد بقوانين الاخلاق والاستمساك بأهدابها . ومن الناس من يعد وازع احترام القانون كافياً للحض على الائتمار بمثل الاخلاق العليا ، ومنهم من يهتم كل الاهتمام بطمع المرء فيما تجزيه به الدولة من مكافأة ويعنى كل العناية بخوف المرء من غضبها . ومنهم من يؤكد كل التأكيد ان ما يجزي به المجتمع ويثيب به او ما يحلُّ على المرء من غضبه وسخطه يكفيه حافزاً مستحثاً او ناهياً مجنباً . وكل جواب من هذه الاجوبة المختلفة قد وقع موقعاً سامياً خطيرا في هذا النظام او ذاك من النُظُم الخلقية الرائجة بين ايدينا في العالم . واذا تأمل المرء وجه المسألة وألطف النظر فيها ، تبين له ان جميع هذه الحوافز قد تكون باعثة على المفاسد والرذائل الخلقية كما تحمل وتستحث على الفضائل والمكارم ، بل انها تصلح أن تكون حوافز للشر أكثر من أن تكون حوافز للخير ، ومهما يكن من الأمر فلا شك أن جميع هذه الحوافز لا تكفي البتة أن تنشّىء

في الانسان من الأخلاق ما يعد خلقاً عالياً او فضيلة سامية .

* * *

هذه النظرة الاجمالية التي ألقيناها على الحالة الخلقية القائمة في العالم ، يتبين الك منها لأول وهلة أن الدنيا في فوضى واضطراب خلقي شديد قد شمل العالم كله ، وأن الانسان بعد أن استغنى عن ربه وربأ بنفسه عن هدايته لم يتمكن من أن يجد أساساً يرفع عليه بنيان الخلق ويشيد فوقه صرح حياته الخلقية بطريق مرضي" تطمئن اليه النفس ، وأصبح لا يجد جواباً شافياً ولا حلاً مقبولاً لجميع الاسئلة الاساسية في فلسفة الاخلاق . فلا هو استطاع أن يظفر بالخير الحقيقي الأعلى الذي ينبغي أن يكون قطباً تدور حوله جميع مساعيه وأعماله في حياته الدنيا ويكون مقياساً تنتقد به أعماله وأفعاله ويعرف به خيرها من شرها وصحيحها من خطأها ، ولا تمكن من أن يعثر على مرجع يرجع اليه ويتعرف به ما الخير وما الشر وما الحق وما الباطل ! وكذلك لم يفز في أن يهيء لنفسه سلطة تتأتى بنفاذها القوة المنفذة لقانون سامٍ شامل عالمي من قوانين الأخلاق ، ولا استطاع أن يجد حافزاً يكفي لأن يبعث

في نفوس الناس رغبة صادقة في اتباع الحق والتنكب عن الباطل . فالانسان بعد أن أبى واستكبر على الرب تعالى شأنه ، حاول أن يحل تلك المسائل بنفسه ويفك معضلاتها بدون أن يقتبس نوراً من هدايته ويستضيء به وزعم انه قد حلها ووجد السبيل اليها ، ولكن الحق أن جميع ما نرى أمام أعيننا اليوم من الانحطاط الخلقى الشديد الذي يكاد يجرف تياره صرح المدنية الانسانية ليس إلا نتائج فكرته الفائلة وآرائه الخاطلة .

أفلم يأن لنا بعد ، أن نتطلب ونبحث عن الاساس الصحيح الذي يمكن أن يقام عليه بنيان الخلق الانساني اقامة محكمة ؟ ومن الحق أن هذا البحث والتطلب ليس بمبحث علمي فحسب ، بل هو ضرورة واقعية من ضرورات حياتنا العملية ، ولا سيما في هذه الآونة المضطربة التي زادتها خطورة وجعلتها وايم الله أهم ضرورة من ضرورات حياتنا . لذلك أريد في هذا المقام أن أعرض عليكم النتائج التي انتهى بي اليها الدرس والتحقيق في هذا الباب ، وأرجو الذين يشعرون منكم بأهمية تلك الضرورة وخطورتها أن يفكروا فيها ويتأملوا في شيء من الأناة والتروي ، ثم يفكروا بأنفسهم ويعملوا رويَّتهم ويجيبوا أي أساس عسى أن يكون صحيحاً ، وأي قاعدة عسى

أن تكون صالحة متينة تصلح لان ينهض عليها صرح الأخلاق الانسانية ؟

فأما النتائج التي قد أفضى بي الدرس والبحث اليها ، فهي أنه لا يصح للأخلاق الانسانية الا أساس واحد هو الذي يهيئه الاسلام ويزوّد به الانسانية . فهنا تجد أجوبة شافية لجميع الاسئلة الجوهرية في فلسفة الأخلاق ، ثم انك لا ترى في هذه الأجوبة شيئاً من الضعف والخور الذي تشاهده في الأجوبة التي تقدمها الفلسفات الأخرى ، ولا تجد فيها من الضعف والوهن ما يلصق بنظم الأخلاق الدينية ويجعلها لا تستطيع أن تنشّيء في الانسان سيرة قوية وخلقاً عالياً ، ولأن تؤهله للقيام بأعباء المدنية الثقيلة ومسؤولياتها المتعددة . هنا تجد هداية خلقية شاملة تأخذ بيد الانسان وتصعد به الى أعلى ما يكون من درجات السمو والرقي في جميع شُعَب الحياة ، وتجد مبادىء خلقية عالية تصلح لأن يشاد على أساسها أصلح نظام من النظم المدنية : واذا أُقيم على هذه المبادىء الخلقية بنيان الأعمال الانسانية والسلوك الانساني الفردي والجماعي ، أمنت الحياة الانسانية مما قد استشرى فيها من الفساد والاختلال . أما الحُجَج والبراهين التي اهتديت بها الى هذه النتائج فأريد أن أُوجز لك شرحها وبيانها فيما يلي :

إن المقام الذي تبتدىء به الفلسفة بحثها في الأخلاق ليس في واقع الأمر بأصل المسألة الخلقية ومبدأها ، وانما هي مباحث فرعية ومسائل ثانوية قد تناولتها الفلسفة فجعلتها فاتحة بحثها وعنوان مقالها . وهذا أول خطأٍ قد وقعت الفلسفة فيه . فان السؤال عن المقياس الذي عسى أن يُعرف به الحق والباطل من أعمال الانسان وأفعاله وعن الخير الحقيقي الذي ينبغي أن يكون السعي وراء الوصول اليه هو الغاية المنشودة للمرء ، ليس بالسؤال الأول الأساسي وليس موضعها مفتتح البحث في الأخلاق . وانما المسألة التي لا بد أن يحلها الانسان أولاً ويفك معضلتها قبل كل شيء ، هي : ما هي مكانة الانسان ومنزلته في هذا العالم ؟ هذا السؤال يتقدم جميع الأسئلة الأخرى بحجة أنه ما دام الانسان لم يقطع بشيء في باب منزلته في هذا الكون ، فان بحثه عن المسألة الخلقية من العبث ومما لا يعود عليه بجدوى . بل الراجح في الظن أنه ما دام الانسان لم يتبين منزلته في هذه الدنيا ، يلتوي عليه سبيل البحث والتنقيب ، وكل ما يقرره من القواعد والمبادىء الخلقية نتيجة لبحثه لا يخلو من أن يأتي معوجاً من أساسه . وخذ لذلك مثلاً انك اذا شئت أن ترسم لك خطة العمل في ضيعة بعينها وأن تحدد لنفسك ما يجوز

من وجوه تصرفك فيها وما لا يجوز ، فهل يمكنك أن تحل هذه المسألة قبل أن تكون على بيّنة من منزلتك في هذه الضيعة ، وقبل أن تجزم بنوع علاقتك بها . فانه اذا كانت تلك الضيعة ملكاً لغيرك ولم تكن أنت فيها إلا كالنائب والأمين ، كان عملك في الضيعة وتصرفك فيها على طريقة وعلى وجه مخصوص ، وأما اذا كنت بنفسك صاحبها ومالكها وكانت حقوق تملّكك لها واسعة غير محدودة ، كان عملك وتصرفك فيها على طريقة أخرى وعلى وجه مغاير للوجه الأول كل المغايرة ، ولا يقف الأمر على أن منزلتك في تلك الضيعة وعلاقتك بها هي التي تحدد لك طريق العمل الصحيح فيها ، بل الأمر أنه عليها يتوقف كذلك جواب هذا السؤال وهو : من ذا الذي يستحق ان يحدد لك خطة العمل الصحيحة في الضيعة ؟ – أأنت بنفسك أم من أنت نائبه في الضيعة ؟

والاسلام يُعنى بهذا السؤال ويعالجه قبل كل شيء ويبين لنا بدون أدنى شائبة للشك والالتباس أن الانسان في هذه الدنيا عبدٌ لله عز وجل ونائب عنه فيها ، وكل ما يراه المرء ويواجهه فيما بين السماوات والأرض ملك لله تعالى وجزء من خَلقه ، حتى جسد الانسان وجميع قواه ومواهبه التي أودعها ليست بملكه هو ، وإنما هي كلها

لله تعالى وحده . وقد بعث الله الانسان في هذه الدنيا نائباً عنه وجعله في الأرض خليفـة ، ووهب له حقوق التصرف في جميع تلك الأشياء التي يواجهها ويتصل بها فيما بين السـماوات والأرض وفي كل ما أوتي في نفسه من القوى والمواهب . وفي تولي الانسان هذه المنزلة — منزلة الخلافة في الأرض — بلاء واختبار من ربه عظيم . أما نتائج هذا البلاء والاختبار فلا تظهر في هذه الدنيا ، بل حينما تنتهي أعمال الأفراد والأمم وكل النوع البشري الى غايتها وتبلغ نتائج ما اكتسب الانسان وعواقب ما اقترف في هذه الدنيا آخرها ومنتهاها ، إذن سيحشر الله جميع الخليقة من لُدن آدم إلى آخر بني الانسان ، ويحاسبهم أفراداً وجماعات في آن ، ثم يحكم بينهم : من قام بحق عبادته وخلافته أحسن قيام ومن قصر فيه وتقاعد عنه ! وهذا البلاء والاختبار ليس بمقصور على أمر واحد من الأمور التي يزاولها الانسان بل هو شامل لجميع أمور حياته : ولا هو بمنحصر في ناحية من نواحي حياته ، بل هو محيط بكل حياته بجميع فروعهـا وشُعَبها . ثم الانسان مبلوّ في جميع ما أوتي في جسده وروحه من القوى والمواهب والملكات ومختبر في كل ما أعطى من حقوق التصرف فيه من الأشياء والمرافق الخارجية — مختبر

في كل هذا وذاك : كيف استخدمها وتمتع بها و كيف استعمل حق تصرفه فيها ؟

وإذا تعينت بذلك منزلة الانسان ومكانته في هـذا الكون ، فمن نتائجـه العقلية أنه لا يبقى للانسان من حق في أن يرسم لنفسه خطة العمل الصحيحة المقتصدة في حياته الدنيـا . بل كل ذلك الحق يرجـع الى الله تعالى وهو الذي يحدد للانسان خطـة العمل والسعي وينير له معالم الجادة السوية في حياته . فترى بعد ذلك أن جميع الأسئلة التي قد أثارها الفلاسفة في باب الأخلاق تنحل عقدها وتنفك ألغازها ؛ وفوق كل ذلك لا يبقى هناك أي مساغ لأن يكون لكل واحد من تلك الاسئلة عشرات من الاجوبة مختلف بعضها عن بعض ، ولا لأن يستأثر كل فريق من البشر بجواب من تلك الأجوبة المتعددة فيتخذه نبراساً يسير على نوره في سبيل منحرفة من سبل الأخلاق ، ثم تأتي هـذه الفرق المتسكعة في مختلف السبل السائرة الى شتى الغايات فتفسد في الأرض بغوايتها واعتسافها وركوبها أهواءها وتجر على الدنيا أنواعاً من الفوضى والاختلال ، مع أنها اعضاء في مدنية واحدة ونظام اجتماعي واحد . وأما اذا اعترف الانسان بمنزلتـــه هذه ، وأذعن لما قرره له الاسلام في هذا العالم ، فانه يتحقق بذلك أنه

ليس الخير الحقيقي الاعلى الذي ينبغي أن ينشده الانسان في حياته ويجعل الوصول اليه نصب عينه إلا أن ينجح في امتحان الله واختباره وينال مرضاة ربه . وكل طريق لعمل المرء وكل خطة لسعيه وكفاحه في هذه الدنيا انما يتوقف صحتها وخطأها على قدر مساعدتها للانسان على نيل ذلك الخير الأعلى والوصول اليه وعلى كونها حائلة دونه وعائقة عنه . وكذلك يثبت من ههنا أن المرجع الاصلي الصحيح لمعرفة الخير والشر والصحيح والخطأ في ما يأتي الانسان من الاعمـــال والافعال هو هدى الله تعالى وارشاده ليس غير ، وأما الوسائل والمآخذ الاخرى التي يتخذها الانسان دون ذلك لتحصيل تلك المعرفة ، فانها وإن صلحت لأن تكون مساعدة ومؤازرة لذلك المرجع الاصلي ، إلا أنها ما كانت لتكون بنفسها المرجع الاصلي والمأخذ الحقيقي الصحيح . ثم يتبين من ذلك أن مرجع السلطـة من وراء القانون الخلقي هو الله تعالى وحده ؛ وأنه ينبغي أن يكون الحافز الحقيقي للانسان على التخلق بالاخلاق العالية والخصال الشريفة والتنكب عن الاخلاق الدنيئة والعوائد السيئة هو محبة الله تعالى والحرص على نيل رضاه والخوف من سخطه وغضبه .

ومن ذلك كله ، لا تنحل جميع المسائل الأساسية في

فلسفة الاخلاق فحسب ، بل يكون النظـــام الخلقي المخصوص الذي يتكون على أساس هـذه النظريات التي جاء بها الاسلام واسعاً شاملاً ينخرط في سلكه جميع ما وضعه علماء فلسفة الاخلاق وأقطابها من النظم الخلقيـة المختلفة وتنسجم فيه انسجاماً مطـّرداً ، ويجد فيـه كل واحد منها مكانه اللائق وموضعه المناسب . وليس من العدل أن يقال إن النظم الخلقية التي جاءت بهـا الفلسفة لا يوجد فيها شيء من الحق والصدق ، بل كل ما يعاب وينكر عليها انها اتخذت جزءاً واحداً من أجزاء مختلفة من الحق فحاولت أن تقصر الحق على ذلك الجزء الواحد فحسب ، أو بعبـــارة أخرى أرادت أن تحول الجزء الواحد كُلّاً : وأما ما فاتها من القـدر الزائد لتحويل ذلك الجزء الى الكل ، فاضطرت لتلافيه الى أن تتخذ اجزاءً من الباطل وتستمد منها ، لتخلطها . أما الاسلام فقد أتى ــ خلافاً لذلك ــ بالحق كله والصدق بأكمله . ويوجد في ما بيده من الحق الكامل الشامل جميع ما عند الناس من أجزاء ناقصة متفرقة من الحق . ففي الاسلام ــ مثلاً ــ للمسرة مكانة ملحوظة . غير أن المراد بالمسرة هنا البهجة والرفاهية التي ينعم بها الانسان باتباعه لأوامر الله تعالى وباهتدائه بهديه وقانونه . ثم هـــذه المسرة

والرفاهية قد تكون مادية يتمتع بها جسد الانسان وقد تكون نفسية عقليـة تستشعرها نفس الانسان وضميره ، وكذلك قد تكون فنية روحية يدركها الذوق ويحس بها الطبع في الانسان . زد على ذلك أن هذه المسرة والرفاهية شاملة لمسرة الفرد الانساني ورفاهيته ، ومسرة الجماعة الانسانية ومسرة كل النوع البشري ورفاهيته . كل هذه الانواع المختلفة للمسرة لا تجد فيها شيئاً من التخالف والتناقض ، بل يوجد في ما بينها كل التلاؤم والتوافق .

وكذلك للكمال في الاسلام مقام مرموق ، إلا ان الكمال المقصود هنا مايستحق به المرءُ نجاحـاً مبيناً في البلاء والاختبـار الذي يبتليه به ربّه في هذه الدنيـا . وهذا الكمال يشترك فيه الفرد والجمـاعة والأمّة والنوع البشري بأجمعـــه . فالسلوك الخلقي الصحيح المرضي في الاسلام هـو ألا يجتزىء المرءُ بأن يرقى به في درجات الكمال وحدَه ، بل يكون فوق ذلك عوناً لغيره ممّن يسايرونه في طريق الحياة في سعيهم وراء نيل الكمال ، ولا يكون أحد عائقاً لأخيه عن تقدُّمه ورقيه .

ومن ههنا تجد نظرية كانْت (Kant Immanual) القائلة بالخضوع التام لأمر الضمير النهائي (Categorical Imperative) أيضاً مكاناً سامياً . وتتهيّأ لهذه السفينة

التي كانت تتمايل ذات اليمين وذات الشمال من قبلُ في خضم" الفلسفة ، مرساةٌ محكمة تنجو بها من الاضطراب فان قانون (Categorical Imperative) القائل بالاطاعة المطلقة لأمر الضمير النهائي ، والذي ذكره (كانت) ولم يتمكن من أن يوضحه حق الايضاح ، هو في نفس الامر القانون المُنزل من الله تعالى والشريعة التي قد سنها الله ـ جلت قدرته ـ وشرعها للخلق ، والله تعالى هو الذي قد بين حقيقتها وأوضح معالمها ، ومن أجل ذلك أصبحت واجبة الاطاعة المطلقة وليس البر" إلا" ان يطيعها الانسان إطاعة كاملة ويتبعها اتباعاً صادقاً .

ثم إنّ المرجع والمأخذ الذي قد أسعفنا به الاسلام لمعرفة الخير والشر في الاخلاق الانسانية لاينفي ولا يبطل جميع ماسواه من المآخذ والمراجع التي يرجع اليها الفلاسفة ويستندون اليها ، وانما يسلكها جميعاً في نظام واحد ويجعلها أجزاء متناسقة لأصل منفرد . وأما ماينفيه ذلك المأخذ ويرفضه فهو أن يتّخذ الانسان جميع تلك المآخذ أو بعضها مأخذاً أصليا حقيقياً ووسيلة نهائية وحيدة الى العلم والمعرفة . والاسلام يُقر" ان ما أُوتي الانسان من معرفة الخير والشر بواسطة الهداية والارشاد الالهي فانه اصلُ العلم ومرجعه . وأما العلم الذي يُحرزه الانسان من

التجربة أو يستخرجه من نواميس الحياة واحوال الوجود وكذلك مايهدى اليه عقلهُ ووجدانه من العلم والمعرفة ، فليس له إلا كالشواهد . ألم ترَ أن الاعمال التي قد عدّتها الهداية المنزلة من عند الله خيراً وصلاحاً ، قد شهدت ولا تزال تشهد تجارب النوع البشري بكونها خيراً ، وكذلك لاتزال تصدق حكمها في ذلك نواميس الحياة ، ويؤيده عقلُ الانسان ووجدانه . ولكن مما لاشك فيه مع ذلك أن مقياس الحق وميزان الصدق هو الهداية الالهيـة لا هـذه الوسائل الانسانية المختلفة للعلم . فان استنبط شيء من تجارب الانسانية التاريخية أو من نواميس الحياة ، او ارتئي رأيٌ مستند الى العقل او الوجدان يخالف حكما من احكام الهداية السماوية ، فانما تكون العبرة كلها لهدى الله تعالى وإرشاده ، لا لهذا الرأي أو ذلك الاستنباط. وإن الفائدة الكبيرة من أن يكون عند الانسان بفضل الهداية الالهية مقياس للعلم صحيح مستند اليه ، هي أن تنسجم جميع العلوم والمعارف الانسانية في نظام وتنتظم في نسقٍ ، وينجو الانسانُ من الفوضى والاضطراب الذي ينشأ اذا لم يكن عنده أي مقيـاس مستند اليه ، ويكون كل ذي رأي من النـــاس مُعجبا برأيه عاضا عليه بنواجذه .

وكذلك يحلّ الاسلام مسألة القوة المنفذة التي تتطلبها القوانين الخلقية لنفاذها بين الناس ، ومسألة الحوافز التي تدفع الانسان الى محاسن الأعمـــال وتُجنبه مساوئها ، بحيث لايضرب عرض الحائط بالآراء والمقترحات الأخرى التي قد قدّمها الفلاسفة لحل تلك المسائل ، وأنما يعالجهـا مصححاً لها ومهذباً بعضها ويصرف عنها الأخطاء والأغاليط التي التصقت بها أو أُضيفت اليها ، فينظمها ويسلكها في نظـام شامل كما تُسلك اللآلىء في عقد منظوم . إن الشريعة الالهية ، لكونها شريعة منزلة من عند الله تعالى ، فيها من الحصانة ماتقوى بـه وتستطيـع أن تقوم بنفسها وينفذ أمرها بين الناس . وهذه القوة ـ التي تُساعد على تنفيذ الشريعة الالهية ـ كامنة ايضاً في نفس المؤمن الذي يروح وينشط لابتغاء مرضاة ربه ، وليسعى وراء الكمال الذي ينـاله الانسان بتقدمه في سبيل التقرُّب الى الله والتزُّلف اليه . ثم هذه القوة المنفذة للقوانين الخلقية توجد كذلك في مجتمع المؤمنين بالله ، وفي الدولة الصـــالحة الراشدة التي قد أُسس بنيانها على قواعد الشريعة الالهية . هذا ومما يحفز المؤمن بالله ويستحثه على التقيُّد بالقوانين الخلقية والاعتصام بحبلها ، عنايته البالغة بأداء واجبه واهتمامه الجدي للقيام بتبعاته وفرائضه ، وايثارُه للحق والصدق

على بصيرة به ، ومقته ُ وازدراؤه للباطل عن علم بحقيقته ، و ـ إلى ذلك كله ـ مايرجو المؤمن من ربّه من حسن الجزاء ونعم الثواب ، ومـا يخافه منه ويتقيه من عسير الحساب وسوء العذاب .

أرأيت كيف يقضي الاسلام ُ على الفوضى والاختلال الذي ينشأ في ناحية الفكر والعمل الانساني حينما يحاول المحاولون أن يضعوا للانسان نظاماً خلقيـاً يتبعه ويسير عليه زاعمين أن الانسان ليس له رب ولا إله يهديه الى طريق الخير والرشاد .

وإذا عرفتَ ذلك فهيا بنـــا نتقدم في البحث الى الأمـام : إن تصور الاله الذي قد جاء به الاسلام هو أنه لا خالق ولا مالك للنوع البشري وسائر العـالم إلا الله الواحد الأحد . لا إله إلا هو ولا حكم إلا له ، ولا شريك له في ألوهيته . فلا مجال عنده لشفاعة لا تُرَدُّ ولا ترفض الا ان تكون تضرعاً وابتهالاً ليستمطر به واكف بره واحسانه .

وأن فوز الانسان وخُسرانه ، مما يتوقف عند الله تعالى على ماقدمت يداه في حياته الدنيا . وليس لأحد أن

يكفّر عن سيئات الآخر ولا يجوز أن تزرَ وازرةً وِزْرَ أُخرى ، ولن يُثاب احدٌ بما كسب غيرُه من الاعمال . ثم إن الله تعالى يتنزه من التعصب لفريقٍ من البشر دون آخر ، وهو أعلى وأرفع عن أن يجنح إلى فرد دون فرد ، أو أن يحيف على أسرة دون أسرة ، أو يخصّ بعنايته أمةً دون أخرى أو نسلاً دون نسل . بل جميع الاناسي عنده سواسية ، وهو قد وضع لجميع البشر قانوناً خلقياً واحداً سواء ؛ والمزية كل المزية عنده ، هي المزية الخلقية . وإن الله رؤوف رحيم ، فيحب في عباده الرحمة والرأفة . وهو السخي الجواد ، فيحب في عباده خصائل الجود والسخاء . وهو العفو الغفور ، فيحب من عباده من يعفو ويصفح ، وهو العادل المقسط ، فيحب المقسطين العدُول ، وتترفّع ذاته عن صفات الظلم والضيم وضيق النظر وحرج الصدر ، ويتنزه عن القساوة والفظاظة والتعصب والميل الى جانب دون آخر ، ومن ثمَ لا يُحب إلا من كان بريئاً من تلك المفاسد ، نزيهاً من تلك المساوىء والرذائل . هذا وإن العظمة والكبرياء كلها لله تعالى من غير منازع ، فالله لايحب للانسان أبداً ان يتكبر في أرضه بغير حق . وهو الاله الواحد الأحد الذي لا إله إلا هو ، وجميع من

في هذا العالم عباد له على السواء ، ولأجل ذلك لايرضى لأحد منهم أن يتبوَّأ من عباده الآخرين منزلة الاله المُطاع والآمر المُطلق . وهو وحده مالك كل شيء في السماوات والأرض ، وأَما ما عند الانسان في هذه الدنيا ، فليس إلا أمانة من عند الله قد ائتمنه عليها ؛ فلا يجوز لأحد من عباده أن يستبدَّ إزاء الله تعالى بالحكم والأمر ، أو يتصدَّر فيسن لخلقه قانوناً ويضع لعباده شرعاً ودستوراً أو يقوم فيهم مقام المتَّبع المُطاع في ذاته ، فإن الله تعالى وحده هو المتَّبع المُطاع للخلق أجمعين ، وكل الخير لجميع البشر في أن يُطيعوه اطاعة كاملة ويذعنوا ، لامره اذعاناً تاماً . والله تعالى بعد ذلك ممتن على عباده ومحسن اليهم ، فيجدر بالانسان أن يقوم بحمده وشكره وأن يحبه ويتقرب اليه . وهو المنعم الحقيقي ، فيستحق ألا يتصرف الانسان في نِعمه وآلائه إلا وفقاً لمشيئته . وهو العادل المنصف ، فحتم على الانسان أن يتَّقي من عَدلِه العقوبة وشر الجزاء كما يلزمه أن يرجو من نصفته خير الثواب وحسن الجزاء . ثم هو العليم الخبير الذي لايعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض ويعلم مافي الصدور فهيهات أن يخدعه الانسانُ بما يتظاهر به من دماثة الخلق وما يتكلفه من سماحة الطبع . وهو المحيط بعباده ، فلا

يحسبن انه يمكنه ان ينجو من بطشه اذا اقترف اثما .

هذا ، وتأمل في تصور الاله هذا ، تجد انه تتكوّن منه - كنتيجة طبيعية - صورة واضحه للحياة الخلقية الكاملة . ومن مزايا هذه الصورة أنّك لا تجد فيها من المعايب والنقائص ما يُوجد في المبادىء الخلقية التي تستمسك بها ديانات الشرك ومذاهب الالحاد المختلفة . ولا توجد فيها مخارج لفرار الانسان وتملّصه من واجباته وتبعاته الخلقية . وكذلك لا يوجد فيها مساغ لتلك الفلسفات المتعسفة الجائرة التي تدفع الانسان الى أن يقسم معمورة النوع الانساني شطرين باعتبار ميوله ورغباته ، فيصبح لشطر واحد من البشرية انساناً شريفاً عالي الخُلق ملكي النفس ، وينقلب للشطر الآخر منها عذاباً أليماً وشيطاناً رجيماً . وكذلك هذه الصورة بريئة من النقائص الجوهرية التي هي آخذة برقاب المبادىء الخلقية الالحادية والتي لا تستطيع معها الاخلاق الانسانية أن تتأصل وتقوى وتستوي على قاعدة متينة . ثم في هذه الصورة - فوق كل ما تقدم ذكره من المزايا السلبية - مزية ايجابية : هي ان هذه الصورة تنصب بين يدي الانسان غاية سامية وسيعة للفضيلة لاحد لسموها وسعتها ، وتسعفه للبلوغ الى منتهى تلك الغاية بجوافز مستولية على الامد في الزكاء ونبل القصد .

ثم ان هذا التصور الذي يُلقيه الاسلام في رُوع الانسان ، انه لا يقصر بلاء ربه له على شيء واحد بل هو يشمل جميع الاشياء التي وهبها الله تعالى للانسان ، وكذلك لاينحصر امتحانه في حالة من حالاته المتعددة وفي منزلة من منازله المختلفة في حياته ، بل هو شامل لجميع حالاته التي يعيش فيها ومحيط بجميع منازله التي يعمل عليهافي هذه الدنيا . ثم هو ليس بمقصور على فرع من فروع حياته ، بل هو متضمن لكل حياته بجميع فروعها وشُعبها - هذا التصور يوسع نطاق الاخلاق الانسانية بقدر مايتسع نطاق الامتحان الالهي ودائرته . ان جميع ما يملك الانسان من العقل ووسائل العلم ومآخذه وجميع ما يتصل بذاته من القوى الفكرية والعقلية والحواس والمشاعر والعواطف والاهواء والقوى الجسدية - إن جميع ذلك عُرضة للامتحان داخل في محيطه ، وبعبارة أخرى أن الامتحان الالهي شامل لذات الانسان بأكمله ومحيط بشخصيته من جميع الاطراف . وإن الانسان بعد ذلك متعرض لامتحان ربه في معاملته لجميع الاشياء التي يواجهها في ما حوله في هذه المعمورة ، ولجميع الاشياء التي يتصرف فيها ولجميع الخلق الذين يصل بينه وبينهم أمر من أمور الدنيا . والذي يبلو الله تعالى به الانسان ويمتحنه فيه فوق كل ذلك هو انه هل يعمل الانسان

ويتصرف ويُعامل في كل تلك الامور مؤمناً بألاهية الربّ تعالى ومستحضراً في نفسه انّه عبد له ونائب عنه في هذه الدنيا ، او يعمل كل ذلك حرّاً طليقاً نزاعاً الى الاستقلال والاستبداد وجاعلاً نفسه عبداً لغير الله ، خاضعاً لغيره من الطواغيت . انك في هذا التصوُّر للاخلاق لا ترى شيئاً من الحرج والضيق الذي ينشأ عن تصور الدين المحدود الضيق ، بل يدفع هذا التصوُّر بالانسان الى التقدم والرقي في كل ميدان من ميادين الحياة ، ويُخبره بالتبعات والمسؤوليات التي تُلقى على عاتقه في كل ميدان من تلك الميادين ، ويزوّده بالمبادىء الخلقية التي — اذا اتبعها وعمل بمقتضاها — تضمن له الفوز والنجاح في امتحان ربه له في كل ميدان من ميادين الحياة المختلفة .

أضف الى ذلك ان هذا التصور وهو ان الامتحان الالهي لا تظهر نتيجته في هذه الدنيا ، بل يقضى امره ويفصل في الدار الآخرة ، وان الفوز المبين ، والخيبة الحقيقية ما عسى ان يثاب به الانسان في اليوم الآخر لا ما يكسبه في هذه الدنيا ، وكذلك يقلب هذا التصور وجهة نظر الانسان ويحوّله تحويلاً بصدد الحياة الدنيا وشؤونها ومعاملاتها ، ويجعله لا يحسب كل ما يظهر من نتائج أعماله وثمرات افعاله في هذه الدنيا مقياسا حقيقياً

للحسن والقبح والصحة والخطأ ، وميزاناً ثابتا محققاً للحق والباطل والفوز والخسران . ومن ذلك لا يتوقف اتباع المرء للقوانين الخلقية أو اعراضه عنها على تلك النتائج . وذلك ان من يتقبل هذا التصور للحياة الآخرة وتستيقن به نفسه فانه لا محالة يصبر على اتباع القوانين الخلقية ويعنى بالتقيد بها في جميع الاحوال سواء أكانت نتيجته الظاهرة في هذه الدنيا حسنة او سيئة ، وسواء أكان نصيبه من ذلك فوزا او خسرانا . وليس المراد بذلك أنه لا يأبه البتة لما يظهر في هذه الدنيا من نتائج الأعمال وثمراتها ولا يهتم بها ، بل الامر أنه لا يهتم لهذه النتائج العارضة والثمرات الزائلة التي تحصل في هذه الدنيا الا بقدر معلوم ، وأما ما يستوفي عنايته به ويبالغ في اهتمامه له ، فهو النتائج الأخروية والعواقب الابدية الباقية ، ثم انه لن يستسيغ لنفسه خطة من خطط العمل الا ما راعى فيه تلك النتائج الأخروية والثمرات الأبدية الباقية ، ولا يكون حكمه في اخذ بعض الامور ورفض بعضها مبنياً على أنه هل تجلب تلك الأمور اليه اللذة والمتعة والمسرة في هذه المرحلة الأولى من مراحل حياته أم لا ؟ بل يكون مدار حكمه في ذلك على ما يظهر من نتائج تلك الامور الباقية المحتومة في المرحلة الأخيرة من حياته . ومن ذلك سيكون نظام

أخلاقه ولا ريب سائراً الى الأمام ماضياً في سبيل الرقي، ولكن لا تكون مبادئه الخلقية عُرضة للتبدل والتغير ولا تكون طبـاعه وسجاياه هدفاً للتحول والتقلب . وبعبارة أخرى ان الانسان وإن بقيت تصـوراته في الخُلق ترتقي وتتسع بارتقاء الثقافة وتقـدم المدنيـة والعمران ، فانه لن تتغير مبادئه الخلقيـة بكل منقلب للحوادث ، ولن تتحول قواعده في الأخلاق مع كل دورة للأحوال والظروف . ولا يستحيل الانسان كالحرباء في الاخلاق لا يثبت له خلق ولا يبقى له عمـل دائم ويكون :

كريشة في مهب الريح طائرة لا تستقر على حال من القلق

فمن ناحية الأخلاق ، يستفيد الانسان من هذا التصور الاسلامي للحيـاة الآخرة فائدتين خطيرتين ، ما كان الانسان ليستمدهما من أية وسيلة أخرى غيره . احداهما أنه بهذا التصور تثبت المبادىء الخلقيـة غاية الثبـات وتستحكم استحكاماً لا تزلزل فيه ولا اضطراب . والأخرى أنه يتأتى بذلك لسيرة الانسان وسلوكه الخلقي قرار وتمكن لا يخشى عليه من الميل والعدول ما دام الانسان ثابتاً في الدين وقلبه مطمئناً بالايمـان . ان الصدق قد يأتي في هذه الدنيا بعشرات من النتائج المختلفة ، وقد يسلك

بعض منتهزي الفرص واصحاب الاغراض ممن يراعون تلك النتائج ويطمحون اليها بابصارهم عشرات من مناهج عملية مختلفة حسبما تقتضيه الفرص وتسمح به الاحوال والظروف. ولكن عاقبة الصدق في الدار الآخرة لاشك واحدة معينة لا اختلاف فيها ولا تبديل. فلا بد للذي آمن بالآخرة وصبت نفسه الى تلك العاقبة ان ينتهج في كل حال من الاحوال منهجاً عملياً واحداً، غير مبال بما قد ينفعه من ذلك أو يضره في هذه الدنيا فأنت ترى انك اذا قصرت نظرك على النتائج الدنيوية العاجلة لا يبقى الخير والشر عبارة عن شيء معين محدد، بل يكون الامر الواحد باعتبار نتائجه المختلفة خيراً في بعض الاحيان وشراً في الاخرى، ومن ثم تكون اخلاق الذين يصرفون اعمارهم في انتهاز الفرص في هذه الدنيا في قلق دائم وتحول مستمر.

واما اذا راعيت النتائج والعواقب الأخروية فلا شك ان الخير والشر يصير معيناً محدوداً، واذن لا يسع احداً ممن يؤمن بالآخرة ان يبدل سيرته، ويغير طريقته في بعض الاحيان لمجرد خوفه من سوء عاقبة الخير وطمعه في حسن نتائج الشر.

ثم ان تصور المرء بانه مستخلف في هذه الدنيا لا يملك من حقوق التصرف والعمل الا من حيث انه خليفة الله ونائب

عنه - هذا التصور يحدد غايه الحياة الانسانية وهدفها ويوضح منهاجها ويبين سبيلها ، ويقتضي هذا التصور الا يجوز لانسان ان يستبد بالامر بازاء ربه ويفلت من طاعته ، أو يعبد غير الله ويذعن للطاغوت ، أو يتكبر على مخلوق الله ويعلو في الارض كأنه الله رب العالمين . بل ليس له الا ان يتبع مرضاة ربه ويستسلم لما انزل الله تعالى من قانون الاخلاق في كل ما يعمله ويتصرف فيه ، وكذلك يدعو هذا التصور الانسان انه ينبغي له - بجانب - ان يتجنب في في اخلاقه واعماله كل منهج وكل خطة عملية يشتم منها رائحة البغي والطغيان ، ويحس فيها اثراً لعبادة غير الله أو العلو والكبرياء الالهية ، لان هذه الامور الثلاثة لا تليق بمقام نيابته عن الله تعالى في الارض ، بل تعارضه وتنافيه . وبجانب آخر ينبغي له ان يكون تصرفه في ما يملكه الله في السماوات والارض ، ومعالجته لما خلق الله من القوى المختلفة والمواهب والملكات ، وحكمه وسلطته على عباد الله ورعيته - يكون كل ذلك موافقاً للخلق وملائما للسنة التي قد اتخذها مالك هذا العالم في ملكه ورعيته . وذلك بانه من مقتضيات النيابة والخلافة بالبداهة ألا تكون خطة العمل التي يعمل بها نائب الملك مخالفة للتي يتخذها الملك نفسه ، ولا تكون اخلاق النائب معارضة لاخلاق الملك .

ثم إن هذا التصور يستوجب ان يكون الانسان مأموراً وألا يستعمل ما آتاه الله تعالى من القوى ولا يستخدم ما هيأ الله له من الوسائل والاسباب إلا حسب ما يحب الله تعالى ويرضى . وان شئت قلت ان من موجبات هذا التصور ان يعد من اكبر المجرمين النائب الذي يتصرف في ما يملكه الملك بخلاف ما يريد الملك ، ويعامل خلقه ورعيته على غير ما يحب ، وان يعد كذلك من أشد المخطئين النائب الذي يلغي حقاً مما آتاه الملك من حقوق التصرف ، ولا يستعمله البتة ، أو يعطل قوة مما وهب له الملك من القوى ، ويضيعها في غير جدوى ، او يتقاعد عن اتخاذ ما يسر له الملك من الطرق والوسائل ويقصر في استخدامها تقصيرا ، ثم يضرب صفحاً عن واجبه الذي قد فرضه عليه الملك وينبذه وراء ظهره ، والى ذلك كله يتحتم من هذا الشعور ان تقوم حياة النوع البشري وشؤونها الاجتماعية على نهج يتيسر فيه لجميع البشر ، او بعبارة اخرى لجميع خلفاء الله تعالى في هذه المعمورة ، ان يتعاونوا في القيام بما القى الله على عواتقهم من الواجبات ، ويتآزروا في اداء ما كتب عليهم من الفرائض والواجبات ، والا يبقى في نظام المدنية والعمران الانساني شيء ما يحفز احداً من بني آدم الى ان يعتدي على حق اخيه في الخلافة ، ويدفع طائفة من الناس الى ان تستولي على طائفة اخرى وتسلبها حق نيابتها أو تعوقها عن ان

تتمتع به وتمضيه في حياتها ، اللهم الا اذا كان الانسان أو طائفة من النوع البشري قد انحطت بنفسها من منزلة الخلافة واتخذت سبيل البغي والطغيان على مليكها الحق المقتدر .

هذا هو المنهج الخلقي الذي يتكون للانسان كنتيجة محتومة لتصور الخلافة والنيابة الانسانية . واما غاية حياة الانسان الخلقية وهدف سعيه وعمله في هذه الدنيا فانه كذلك يتعين من ذلك التصور بالدلالة المنطقية الواضحة ، وذلك انه لما كان الانسان مأمورا في هذه الارض من لدن ربه ، ونائبا عنه ، فان ذلك يقتضي ولا بدّ الا تكون لحياة الانسان غاية سوى ان يُمضيَ حكمه وينفذ امره في هذه المعمورة الارضية ، ثم ان يسعى الانسان لتنفيذ حكم الله تعالى وقانونه في ما قد فوضه الله تعالى الى الانسان من تدبير الامر في ارضه ، ويقيم في هذه الدنيا نظام الأمن والصلاح والعدل وفقاً لمشيئة ربه ، ويقضي على كل ما يأتي به شياطين الجن والانس من ضُروب الخبث وانواع الفساد في هذا النظام ، ويستأصل شأفته ؛ وأن ينشىء الفضائل ويسقي غرس الحسنات التي يحبها الله تعالى ويريد أن يرى أرضه عامرة بها وأهليها من رعيته متحلين بحليتها — فكل ذلك هو الغاية التي ينشدها كل

ثم ان هذا التصور يستوجب ان يكون الانسان مأموراً وألا يستعمل ما آتاه الله تعالى من القوى ولا يستخدم ما هيأ الله له من الوسائل والاسباب إلا حسب ما يحب الله تعالى ويرضى . وان شئت قلت ان من موجبات هذا التصور ان يعد من اكبر المجرمين النائب الذي يتصرف في ما يملكه الملك بخلاف ما يريد الملك ، ويعامل خلقه ورعيته على غير ما يحب ، وان يعد كذلك من أشد المخطئين النائب الذي يلغي حقاً مما آتاه الملك من حقوق التصرف ؛ ولا يستعمله البتة ، أو يعطل قوة مما وهب له الملك من القوى ، ويضيعها في غير جدوى ، او يتقاعد عن اتخاذ ما يسر له الملك من الطرق والوسائل ويقصر في استخدامها تقصيرا ، ثم يضرب صفحاً عن واجبه الذي قد فرضه عليه الملك وينبذه وراء ظهره ، والى ذلك كله يتحتم من هذا الشعور ان تقوم حياة النوع البشري وشؤونها الاجتماعية على نهج يتيسر فيه لجميع البشر ، او بعبارة اخرى لجميع خلفاء الله تعالى في هذه المعمورة ، ان يتعاونوا في القيام بما القى الله على عواتقهم من الواجبات ، ويتآزروا في اداء ما كتب عليهم من الفرائض والواجبات ، والا يبقى في نظام المدنية والعمران الانساني شيء ما يحفز احداً من بني آدم الى ان يعتدي على حق اخيه في الخلافة ، ويدفع طائفة من الناس الى ان تستولي على طائفة اخرى وتسلبها حق نيابتها أو تعوقها عن ان

تتمتع به وتمضيه في حياتها ، اللهم الا اذا كان الانسان أو طائفة من النوع البشري قد انحطت بنفسها من منزلة الخلافة واتخذت سبيل البغي والطغيان على مليكها الحق المقتدر :

هذا هو المنهج الخلقي الذي يتكون للانسان كنتيجة محتومة لتصور الخلافة والنيابة الانسانية . واما غاية حياة الانسان الخلقية وهدف سعيه وعمله في هذه الدنيا فانه كذلك يتعين من ذلك التصور بالدلالة المنطقية الواضحة ، وذلك انه لما كان الانسان مأمورا في هذه الارض من لدن ربه ، ونائبا عنه ، فان ذلك يقتضي ولا بُدّ الا تكون لحياة الانسان غاية سوى ان يُمضيَ حكمه وينفذ امره في هذه المعمورة الارضية ، ثم ان يسعى الانسان لتنفيذ حكم الله تعالى وقانونه في ما قد فوضه الله تعالى الى الانسان من تدبير الامر في ارضه ، ويقيم في هذه الدنيا نظام الأمن والصلاح والعدل وَفقاً لمشيئة ربه ، ويقضي على كل ما يأتي به شياطين الجن والانس من ضُروب الخبث وانواع الفساد في هذا النظام ، ويستأصل شأفته ؛ وأن ينشىء الفضائل ويسقي غرس الحسنات التي يحبها الله تعالى ويريد أن يرى أرضه عامرة بها وأهليها من رعيته متحلين بحليتها — فكل ذلك هو الغاية التي ينشدها كل

انسان استيقظ فيه الشعور بكونه خليفة الله ونائبه في الأرض ، ويخلص لها مساعيه ويحصر فيها جدّه وعمله . هذه الغاية لاتقف على أن ترفض وتبطل الغايات والاهداف التي قد قررها لحياتهم محبو اللذة والمتعة وعشاق المادة وعُبّاد القومية والوطنية ومن على شاكلتهم من المولعين بكل عبث وفضول ، بل ترفض كذلك رفضاً باتا الغايات المهملة التي قد وضعها أتباع النحل ورجال الاديان متأثرين بما قد سيطر وأخذ بمجامع فكرهم من تصور مخطىء للروحانية . وبين هذين الطرفين المتناقضين البعيدين عن القصد والاعتدال ، يضع تصور الخلافة والنيابة بين يدي الانسان من الغاية العليا والهدف الأسمى ماينشط جميع قواه للعمل ويستحث جميع مواهبه وغاياته للسعي والكفاح في كل حلبة من حلبات الحياة ، ويستخدمها في إقامة أصلح نظام للمدنية والثقافة ، وترقيته وتعميمه.

أما بعد ، فهذه هي الاسس التي قد زودنا بها الاسلام لنرفع عليها بنيان الاخلاق الانسانية . وليكن على ذكر منكم أن الاسلام ليس بتلك لامة بعينها من الامم ، أو طائفة مخصوصة من طوائف البشر ، بل هو ارث عام تشترك فيه الانسانية جمعاء ؛ وأنه لا غاية أمامه الا فلاح العالم كله ونجاح البشر جميعهم . فمن كان يريد فلاحه

وسعادته وسعادة بني نوعه جميعاً فهو حري بأن يتأمل ويفكر :
أي الاسس أقوى وأقوم لانشاء الاخلاق الانسانية ،
وتنميتها وترقيتها ـ الاسس التي يهيئها لنا الاسلام ويدعونا
اليها ، أم التي تأتينا بها الديانات الروحانية والمذاهب
الفلسفية ؟ واذا اطمأنت نفسه وشهد قلبه على أن الاسس
الاسلامية هي أصح وأقوم ، واكفل للوصول بالانسان
الى الهدف المنشود والغاية المطلوبة ، فاذن لا تمنعنه
عصبية من العصبيات الجاهلية من قبولها والتزامها .

* * *

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

انسان استيقظ فيه الشعور بكونه خليفة الله ونائبه في الأرض ، ويخلص لها مساعيه ويحصر فيها جدّه وعمله . هذه الغاية لاتقف على أن ترفض وتبطل الغايات والاهداف التي قد قررها لحياتهم محبو اللذة والمتعة وعشاق المادة وعُبّاد القومية والوطنية ومن على شاكلتهم من المولعين بكل عبث وفضول ، بل ترفض كذلك رفضاً باتا الغايات المهملة التي قد وضعها أتباع النحل ورجال الاديان متأثرين بما قد سيطر وأخذ بمجامع فكرهم من تصور مخطىء للروحانية . وبين هذين الطرفين المتناقضين البعيدين عن القصد والاعتدال ، يضع تصور الخلافة والنيابة بين يدي الانسان من الغاية العليا والهدف الأسمى ماينشط جميع قواه للعمل ويستحث جميع مواهبه وغاياته للسعي والكفاح في كل حلبة من حلبات الحياة ، ويستخدمها في إقامة أصلح نظام للمدنية والثقافة ، وترقيته وتعميمه.

أما بعد ، فهذه هي الاسس التي قد زودنا بها الاسلام لنرفع عليها بنيان الاخلاق الانسانية . وليكن على ذكر منكم أن الاسلام ليس بتلك لامة بعينها من الامم ، أو طائفة مخصوصة من طوائف البشر ، بل هو ارث عام تشترك فيه الانسانية جمعاء ؛ وأنه لا غاية أمامه الا فلاح العالم كله ونجاح البشر جميعهم . فمن كان يريد فلاحه

وسعادته وسعادة بني نوعه جميعاً فهو حري بأن يتأمل ويفكر : أي الاسس أقوى وأقوم لانشاء الاخلاق الانسانية ، وتنميتها وترقيتها — الاسس التي يهيئها لنا الاسلام ويدعونا اليها ، أم التي تأتينا بها الديانات الروحانية والمذاهب الفلسفية ؟ واذا اطمأنت نفسه وشهد قلبه على ان الاسس الاسلامية هي أصح وأقوم ، واكفل للوصول بالانسان الى الهدف المنشود والغاية المطلوبة ، فاذن لا تمنعنه عصبية من العصبيات الجاهلية من قبولها والتزامها .

* * *

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين

يظهر قريباً

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

ألفها

أبو الأعلى المودودي

أمير الجماعة الإسلامية بباكستان

منشورات دار العروبة للدعوة الاسلامية

ظهر منهـا :

آ – للاستاذ أبي الاعلى المودودي

١ – مبادىء الاسلام (نفد)

٢ – المصطلحات الاربعة في القرآن

٣ – البيانات

٤ – اسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة

٥ – نحو الدستور الاسلامي

٦ – الدين القيم (نفد)

٧ – نظرية الاسلام السياسية (نفد)

٨ – منهاج الانقلاب الاسلامي (نفد)

٩ الجهاد في سبيل الله (نفد)

١٠ – الاسلام والجاهلية

١١ – معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام (نفد)

١٢ – نظام الحياة في الاسلام (نفد)

١٣ – شهادة الحق (نفد)

١٤ – المسألة القاديانية (نفد)

يظهر قريباً

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

ألفها

أبو الأعلى المودودي

أمير الجماعة الإسلامية بباكستان

منشورات دار العروبة للدعوة الاسلامية

ظهر منها :

آ – للاستاذ أبي الاعلى المودودي

١ – مبادىء الاسلام (نفد)

٢ – المصطلحات الاربعة في القرآن

٣ – البيانات

٤ – اسس الاقتصاد بين الاسلام والنظم المعاصرة

٥ – نحو الدستور الاسلامي

٦ – الدين القيم (نفد)

٧ – نظرية الاسلام السياسية (نفد)

٨ – منهاج الانقلاب الاسلامي (نفد)

٩ الجهاد في سبيل الله (نفد)

١٠ – الاسلام والجاهلية

١١ – معضلات الاقتصاد وحلها في الاسلام (نفد)

١٢ - نظام الحياة في الاسلام (نفد)

١٣ – شهادة الحق (نفد)

١٤ – المسألة القاديانية (نفد)

ب ـ للاستاذ مسعود الندوي

١ الاسلام ودعوته

٢ ـ الجماعة الاسلامية

٣ ـ نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية

تحت الطبع :

١ ـ تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند وباكستان

٢ ـ الأسس الخلقية للدعوة الاسلامية

٣ ـ مسألة ملكية الأرض في الاسلام

٤ موجز تاريخ أحياء الدين وتجديده

٥ ـ الربا

٦ ـ ماضي المسلمين وحاضرهم وخطة العمل لمستقبلهم

٧ ـ جميع الرسائل التي نفدت

تحت التعريب :

١ الحجاب

٢ ـ دعوة الدين ومنهاج القيام بها

٣ ـ تفهيم القرآن

٤ ـ الثقافة الاسلامية ومبادئها

تطلب هذه المنشورات من العنوان الآتي

مكتبة الشباب المسلم . ص . ب (٥٥٦) .

تم طبع هذه الرسالة في « المطبعة التعاونية »
في ١٢ من محرم الحرام سنة ١٣٧٦ هـ.
١٩ آب ١٩٥٦

ب ـ للاستاذ مسعود الندوي

١ الاسلام ودعوته

٢ ـ الجماعة الاسلامية

٣ ـ نظرة إجمالية في تاريخ الدعوة الاسلامية

تحت الطبع :

١ ـ تاريخ الدعوة الاسلامية في الهند وباكستان

٢ ـ الأسس الخلقية للدعوة الاسلامية

٣ ـ مسألة ملكية الأرض في الاسلام

٤ موجز تاريخ أحياء الدين وتجديده

٥ ـ الربا

٦ ـ ماضي المسلمين وحاضرهم وخطة العمل لمستقبلهم

٧ ـ جميع الرسائل التي نفدت

تحت التعريب :

١ الحجاب

٢ ـ دعوة الدين ومنهاج القيام بها

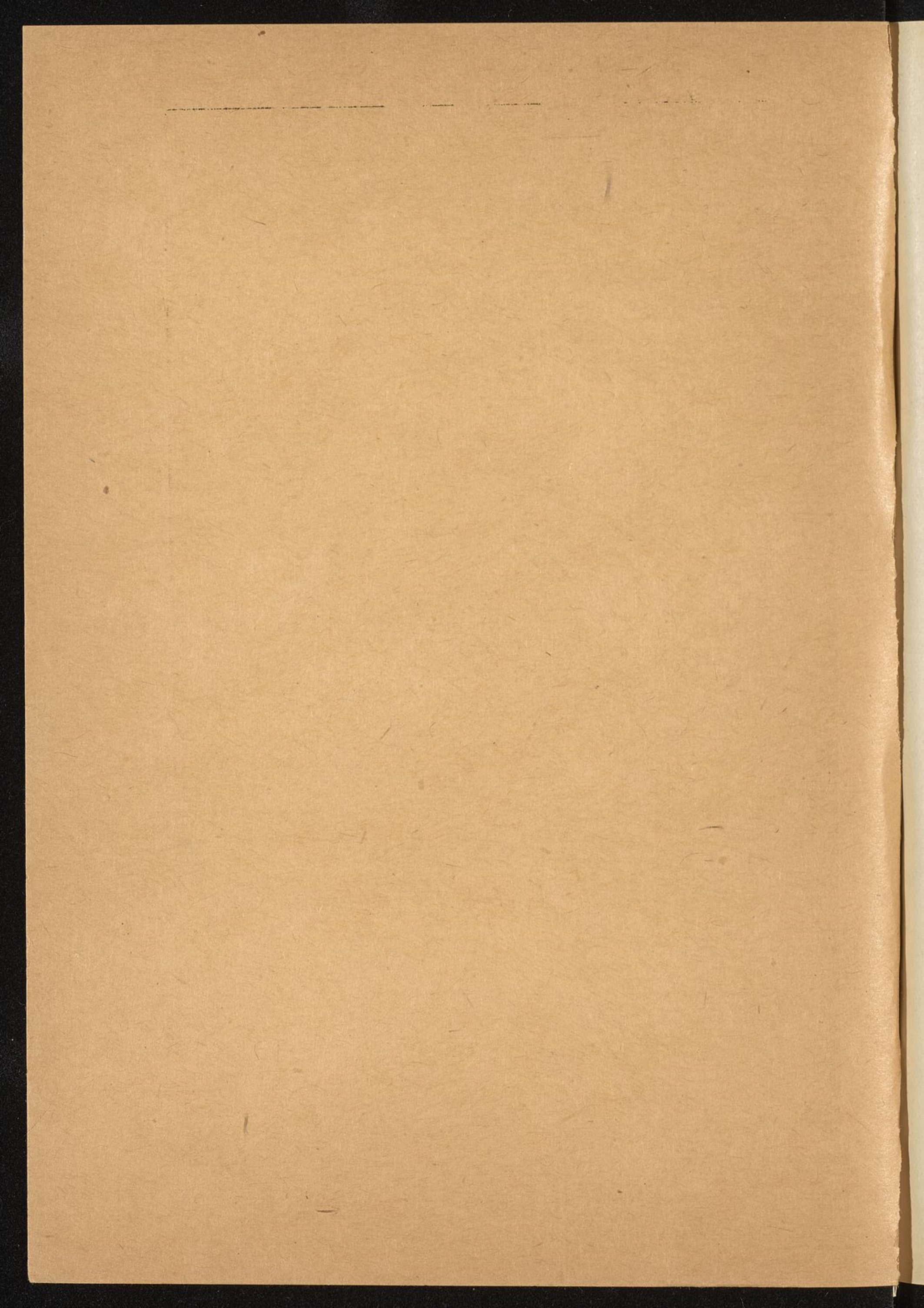
٣ ـ تفهيم القرآن

٤ ـ الثقافة الاسلامية ومبادئها

تطلب هذه المنشورات من العنوان الآتي

مكتبة الشباب المسلم . ص . ب (٥٥٦) .

تم طبع هذه الرسالة في « المطبعة التعاونية »
في ١٢ من محرم الحرام سنة ١٣٧٦ هـ .
١٩ آب ١٩٥٦



دعوتنا

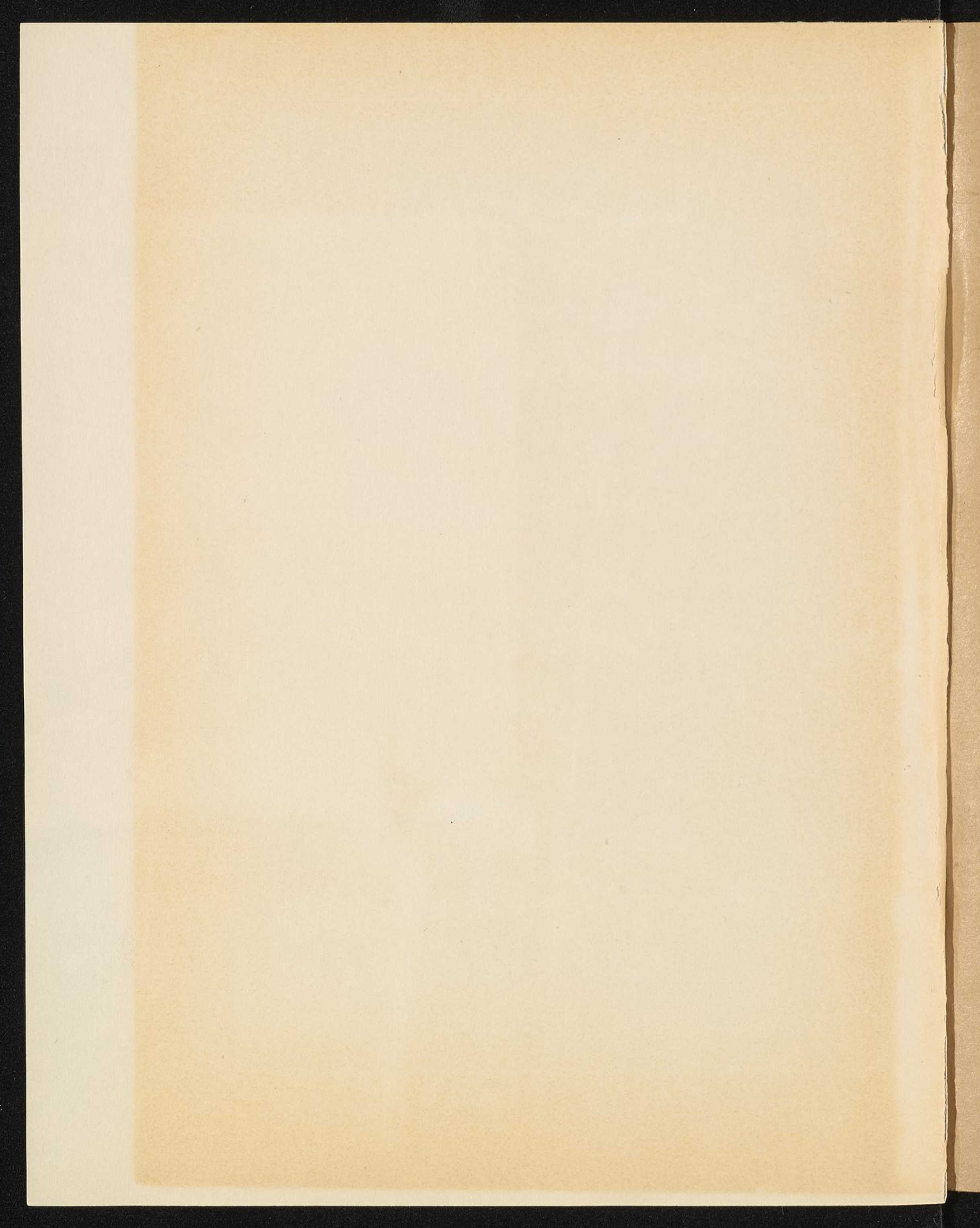
١ - دعوتنا للبشر كافة والمسلمين خاصة أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً ولا يتخذوا الهاً ولا رباً غيره.

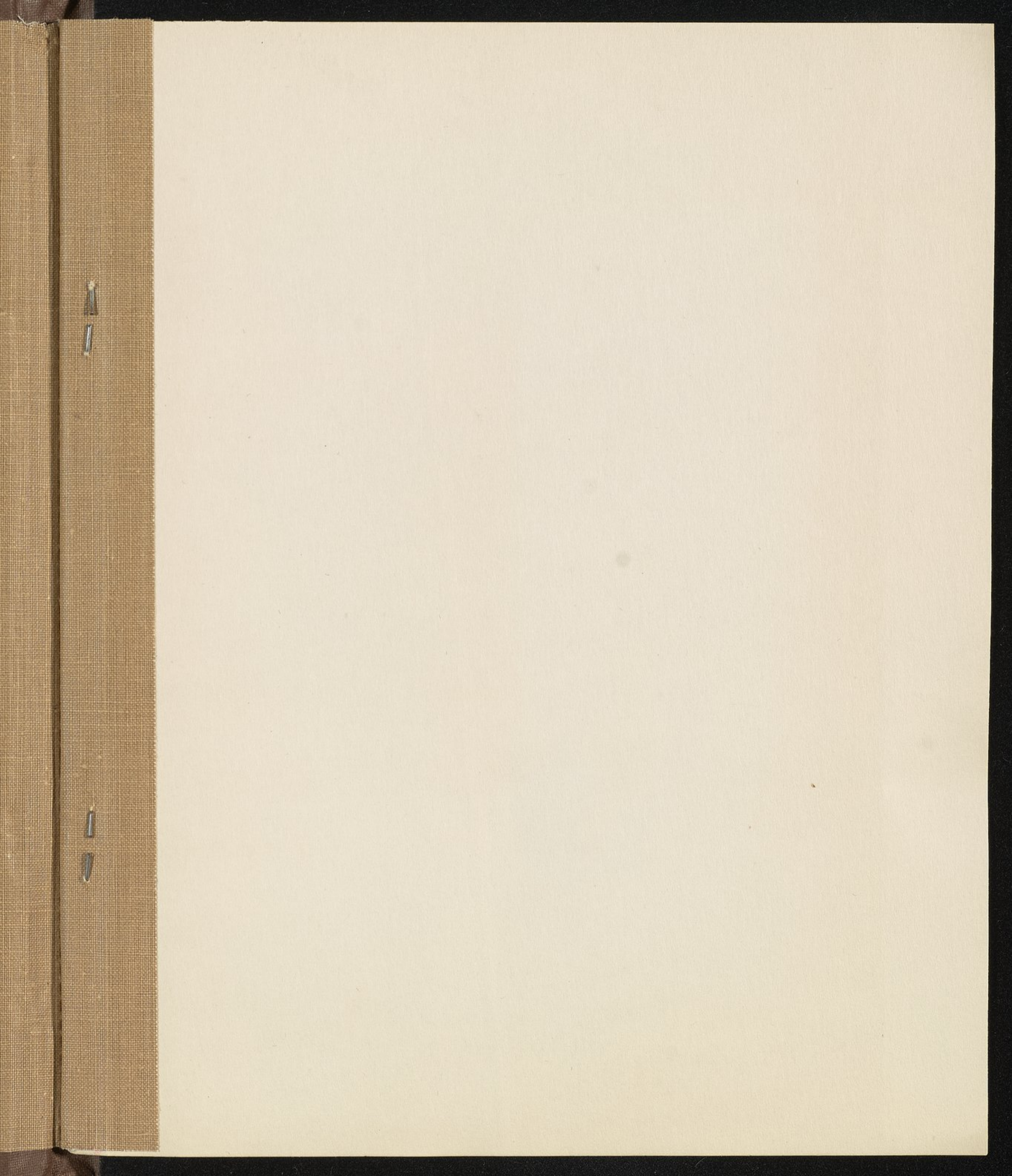
٢ - ودعوتنا لكل من أظهر الرضا بالاسلام ديناً أن يخلصوا دينهم لله، ويزكوا أنفسهم من شوائب النفاق، وأعمالهم من التناقض.

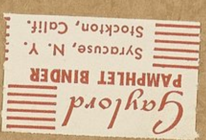
٣ - ودعوتنا لجميع أهل الأرض أن يحدثوا اصلاحاً عاماً في اصول الحكم الحاضر الذي استبد به الطواغيت والفجرة الذين ملأوا الأرض فساداً، وأن ينتزعوا هذه الإمامة الفكرية والعملية من أيديهم حتى يأخذها رجال يؤمنون بالله واليوم الآخر ويدينون دين الحق ولا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً.

الجماعة الاسلامية بباكستان

٦٠ ق. س. أو ما يعادلها المطبعة التعاونية في دمشق






Gaylord
PAMPHLET BINDER
Syracuse, N. Y.
Stockton, Calif.